

ك. ابراهيمي

تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر



ترجمة:
- محمد البشير شنيتي - رشيد بورويبة



69.24
ع2
338
10



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويوضع في المكتبات ولا يباع

ل. ابراهيمي

تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر

ترجمة :

محمد البشير شيتي رشيد بورويبة



توطئة

يبدو من المفيد اختراق التقاليد التي تجعل معرفة ما قبل التاريخ في الجزائر وقفا على النشريات المتخصصة ، وذلك لتمكن أكبر نسبة من الجمهور للاطلاع على ما وقع في الجزائر حتى بداية العصور التاريخية .

ان الجزائر غنية جدا بآثار ما قبل التاريخ ، ويستهدف هذا « التمهيد » وضع حد للوضعية الشاذة التي تجعلنا آخر من يطلع على هذه الثروة .

وقد بذلنا جهودنا هنا كي نذكر بوضوح دون ان ننقصنا الدقة ، ما جرى خلال هذه الآلاف من السنين ، لكننا لا نزعم اننا بصدد تقديم مؤلف يشتمل على جميع ما عرف حول هذا الموضوع حتى الآن ، اذ لا يسعنا المجال ولا الوقت للقيام بمثل هذا المشروع .

يكون هذا التمهيد قد حقق هدفه اذا تمكن من دفع الجمهور نحو مزيد من الاطلاع على ما قبل تاريخنا . واذا وصل بالجمهور الى تقييم مدلول هذا الميراث الثقافي ، مدرجا الى جانب مسجد سيدي عقبة ، آثار جميلة ورسوم الطاسيلي ورمالية تيريفين ومقبرة افالوبورمل ، فان هذا « التمهيد » يكون قد تجاوز هدفه .

مقدمة

ما هو علم آثار ما قبل التاريخ ؟

يستهدف علم آثار ما قبل التاريخ كشف ودراسة حضارات الإنسان العائدة الى ما قبل اختراع واكتساب الكتابة الأبجدية . وتتوقف معرفة هذه الحضارات على فحص الوثائق المادية التي خلفها الإنسان ، والتي ظلت في معظمها محفوظة ضمن الرسوبات . تكمن المهمة الأولى للمشتغل بما قبل التاريخ اذن في تنقيب التربة تبعا لطرق ملائمة من اجل اخراج هذه الوثائق ثم دراستها .

ان الوثائق الأثرية متنوعة ، ولكن الوحيدة الباقية منها هي الأدوات المكونة من مادة مقاومة لعوامل الافناء الكيميائية والفيزيائية . ولهذا السبب لم تصلنا الأدوات الخشبية او القصصية ، كما ان العظم نفسه قد تعرض في بعض الترب الحمضية للتلف « الفناء » .

تقدم حفرة ما قبل التاريخ للمنقب اذن ، وحسب الحالات ، أدوات او اسلحة حجرية وعظمية ، وعظاما حيوانية ، وقواقع رخويات ، وعظاما بشرية ، وبيضا (خاصة بيض النعام) ، وقطعا فحمية ، والوانا معدنية ، وغير ذلك ... كما يعثر أيضا على أوعية من الفخار في مواقع العصور المتأخرة ، وكذلك على أدوات معدنية تعود الى فترة تالية .

الحفريات :

تستهدف الحفريات الكشف عن الوثائق ، وقد تكون أحيانا عبارة عن التقاط للأدوات ، وبما ان أناس ما قبل التاريخ عاشوا فوق الموقع ، فانه يمكن العثور على أثر اقامتهم حول المحطات ، وعلى الأماكن التي كانوا يصنعون فيها أدواتهم . وباختصار يجب العثور على بنية المسكن وقهمها . ولهذا فمن الضروري أن يعتمد الى تنظيف الطبقة الأثرية من الرسوبات ، التي يعثر فيها على الوثائق بدقة كبيرة . ثم القيام بتحديد أماكن وجود الوثائق والوضعية النسبية التي كانت عليها باتباع نظام الاحداثيات ذات الأبعاد الثلاثة (صورة 1) . انه الشرط الوحيد الذي يمكن الأثري أن يأمل في العثور على بنيات المساكن .

كثيرا ما كان الموقع الواحد محل استيطان طويل ، ولم يهجر الا مؤقتا وفي هذه الحال تتراكم المساكن ، وتكون الاقدم هي الاكثر عمقا . واحيانا ، عند انقطاع العمران ، يحدث لنا تتكون طبقة فاصلة بين السابقة واللاحقة ، وتكون هذه الطبقة الفاصلة محتوية على تربة وحصاء خالية من الوثائق . ولقد قدم لنا موقع كلومناطة (تيارت شكل 1) نموذجا لهذه الحالة ، حيث احتوت الجهة الجنوبية من هذا الموقع على ثلاث حضارات متراكبة ، تفصل الواحدة عن الاخرى انقراض من التربة الخالية من الوثائق . ونقول اذن ان الحضارات التي على هذا المنوال مرتبة على النظام الطبقي (استراتيجرافية) . وتسمح هذه الوضعية عند التأكد من خلوها من التداخل المتسبب في تغيرها وافساد خصائصها ، بافراد اية حضارة منها بكونولوجي له صلة بالتالي تعلوها او التي تقع تحتها .

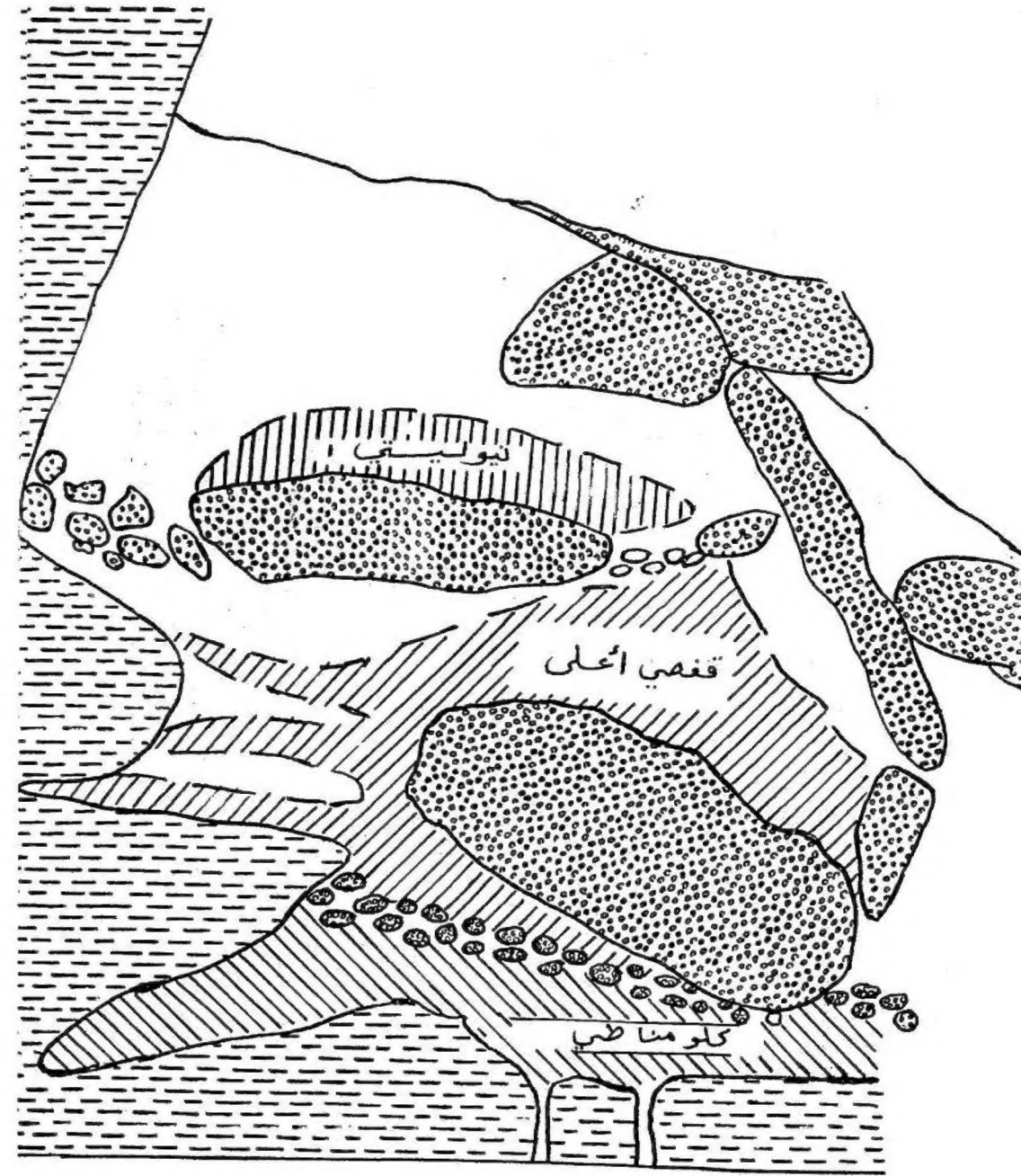
ان المواقع ليست دائما ملائمة ، ذلك ان الاستقرار في بعض الاحيان كان طويلا ومتواصلا ، فتغيرت طبيعة الادوات اثرية تبعا لذلك فيما بين بداية ونهاية الاستقرار . ولا يتأتى ادراك هذا التطور وتتبعه بدقة الا اذا جرت الحفيرة في صورة تنظيف شرانحي يتراوح ما بين 2 و 5 سم . وعلى امتداد عدة امتار مربعة اخرى من العمق ، وهذا ما يعبر عنه بكون الحفيرة قد جرت في صورة استراتيجرافية اصطناعية .

تتكون ادوات التنقيب المستعملة من طرف رجل آثار ما قبل التاريخ خاصة من فراشي صغيرة ، وادوات شبيهة بالتالي يستعملها طبيب الاسنان ، وهي مخصصة لازالة ما علق بالوثائق من زوائد ، الى جانب المتر والخيط ذي الرصاصة والمستوى ذي النقطة ، ثم المناخل الدقيقة . وكل هذه الاجهزة متواضعة المبلغ .

دراسة الوثائق :

تشتمل الدراسة على تعريف وتحليل وترتيب منتوجات الحفيرة .

ان يجب ان تصنف الأسلحة او الادوات الحجرية (صناعات حجرية) والعظمية (صناعات عظمية) حسب اشكالها كما يمكن تحديد تقنية صناعتها . ولقد تم تحديد لكل فترة من فترات ما قبل التاريخ اصناف من الادوات المتميزة ، وبالإمكان تعريف معظم الادوات المكتشفة اعتمادا على القوائم التيبولوجية الموضوعة لهذا الغرض ، وهو ما يمكن من القيام بعرض الوثائق الحجرية او العظمية المكتشفة في حفيرة ما على تحليل احصائي ، يترجم ، في صورة نسب مائوية ، أهمية هذه الادوات او تلك ، وهذه المجموعة او الاخرى من الادوات . واهرا يمكن ابراز هذا التحليل الاحصائي في لوح بياني تحت شكل منحنيات او خطوط بيانية يمكنها ان تقدم لنا صورة عن الصناعات المأخوذة بعين الاعتبار . وقد تقضي مقارنة الألواح البيانية



شكل 1 . رسم لاستراتيجرافية موقع كلومناطة (تيارت) في القسم الجنوبي كل طبقة معزولة عن الاخرى برمال خالية من الوثائق او باكوام من الحصى .

بعضها الى جمع (شكل 2) أو تفريق (شكل 3) جذري بين صناعتين أو أكثر .

يتم تحليل الوثائق المستخرجة بمواصفات قرائنا من الوثائق الأخرى . وذلك عندما تكون هذه الأدوات غير قابلة للتصنيف ، كقطع المواد الملونة ، وعناصر الزينة (اصداغ مصقولة أو مثقوبة الخ ..) . بعض الوثائق مثل قطع بيض النعام واواني الفخار تحمل أحيانا زخارف . ان كل هذه الأنواع من الزخارف قد صنف ، فينبغي إذن تمييزها . يقوم تحليل الأواني الفخارية الى جانب تعريف الزخرف ، على تقنية الصناعة وكيفية الشوي وعلى الشكل الخ ...

ينبغي إذن اخضاع الوثائق المتحصل عليها الى عملية وصف علمي حتى تستخرج منها جميع المعلومات الممكنة .

لكن معرفة حضارات ما قبل التاريخ تظل جزئية جدا إذا اقتصر الأمر فيها على تحليل الأدوات وحدها . ومن ثم فانه من الممكن استخدام عناصر أخرى من المعلومات منها :

ان عظام الحيوانات يمكن تحديدها ، وهو أحد اختصاصات علم الباليونتولوجيا الحيوان ، وتسمح هذه التحديدات بالتعرف على أنواع الحيوانات التي اقتصصها الانسان واستهلكها في مختلف العصور . وان ظهور أو انقراض فصيلة ما له أهمية كبرى في تحديد التغيرات المناخية التي حدثت ، ومن ثم ما حدث بعد الحجري الأوسط من انقراض الكركدن ، وهو حيوان مكيف مع البرودة ، أمر يدل على ارتفاع درجة الحرارة في اقليمنا طيلة المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم .

ومعرفة المناخات القديمة يمكن أن تضبط هي الأخرى بواسطة تحديد نباتات ما قبل التاريخ ، وذلك بفحص تفضيات النبات (فلور) المتحجرة المكتشفة في الرسوبات ، وكذلك بتحديد اصناف الخشب الذي استعمل في الموقع ووصلنا في صورة فحم خشبي (صورة 2) . ويدرس علم الباليونتولوجيا تفضيات النبات المتحجرة ، اما علم الباليوبوتانيك فمجاله تحديد اصناف النباتات انطلاقا من الفحم الخشبي ، وهو يحاول من جهة أخرى ، اعتمادا على الباليونتولوجيا ، إبراز الاطار النباتي بالنسبة لاقليم ما ، وفي مرحلة زمنية معينة .

إذا كانت دراسة الفلور (النباتات) والفونا (الحيوانات) المتحجرة تساهم في معرفة المناخات القديمة ، فإن دراسة الترسبات التي تحتوي عليها الحفرية لا ينبغي اهمالها ، إذ يحدث أحيانا العثور ضمن تعاقب الطبقات على تعاقب مراحل مناخية متنوعة : جافة ، باردة ، رطبة ، الخ .. وفعلا ان هذه المراحل كانت غالبا ما تمتاز بالتغيرات في أساليب التفرقة وتصعد الصخور ، وهو ما تمكن قراءته على مقطع استراتيجرافي .

لقد ترك تغير مستوى سطح البحر في المناطق الساحلية خلال العصور القديمة علامات على الرقار في شكل شواطئ متحجرة وكثبان متينة ، وهي أمور تساعد كثيرا في إبراز الحياة الجيولوجية الماضية لاقليم ما .

ومعلوم ان من مهام عالم ما قبل التاريخ تمييز الحضارات التي يدرسها ، ولكن عليه ، وفي حدود الامكان أن يحدد لها مكانا في الكرونولوجي ، وان يؤرخها . ويمكنه القيام بهذا العمل اعتمادا على طريقتين اثنتين : تتمثل الأولى فيما يسمى بالتاريخ الكرونولوجي النسبي القائم بالخصوص على الطبقات الاستراتيجية التي تسمح بترتيب الحضارات بالنسبة لبعضها حسب موقعها في السلم الكرونولوجي . ففي نموذج كلومناطة (شكل 1) مثلا أمكن القول بأن « الكلومناطي » أقدم من الفقصي الأعلى وهو نفسه أقدم من النيوليتي (العصر الحجري الحديث) . اما الثانية فهي الكرونولوجي المطلق الذي يسمح بتاريخ طبقة أولقية أو صناعة ، وتقوم هذه الطريقة على المبدأ التالي :

جميع المواد العضوية (شجرة ، محارة ، كائن حي = بشري مثلا) تتمثل في حياتها كمية من الفحم 14 ، والذي نضيره فحم 12 . وعند الموت (موت الكائن العضوي) فان الفحم 14 الذي لم يبق متمثلا ، يأخذ في التفكك بسرعة معروفة . وهو ما يمكن من معرفة تاريخ وفاة الكائن العضوي بقياس أشعاع الفحم 14 الموجود في عينة ما (قطعة فحم مثلا) ، والتاريخ المتحصل عليه في هذا المثل هو تاريخ قطع الخشب .

غير أن هذه الطريقة محدودة ، لانه عندما يكاد يتفكك الفحم 14 نهائيا تصبح المقاييس متعذرة . ومن ثم لا يعطي التاريخ بطريقة الفحم 14 نتائج لأكثر من ثلاثين الف سنة قبل الميلاد . وهناك طرق أخرى اليوم تمكن من تجاوز معتبر لهذه الحدود الزمنية .

وتعد العظام البشرية افضل الوثائق التي عثر عليها في حفريات ما قبل التاريخ (صورة 3) . ذلك انه قد تعاقبت على أرضنا خلال ملايين السنين التي سبقت ظهور الانسان الحالي أشكال متنوعة من البشرية . ويساعدنا علم بقايا الانسان المادية والجسمانية (الباليونتولوجيا الانسان والاثروبولوجيا الفيزيكية) على دراسة هذه الأشكال وتصنيفها قصد العثور على المسيرات المعقدة التي اجتازها النوع البشري منذ الثدييات اواخر الزمن الترياري الى الشعوب الحالية .

لقد شهدت معرفة انسان ما قبل التاريخ تقدما ملحوظا في السنوات الأخيرة . ويمكننا الآن ان نجري احصاءا لأنواع مختلفة من انسان شمال افريقيا الذي سكن بلادنا وربما أمكننا ايضا ان نستشف من خلال ذلك العلاقات التي كانت تربط بينهم ، بل ان الباليونتولوجيا التي هي علم في

شهدتها بلادنا آنذاك فهي الليبية التي توصل العلماء الى فك رموزها دون ان يسيطروا على فهمها . وتكون الروايات الادبية المنسوبة لمؤلفين اجانب (اغريق ولاتين) مصدرا جديدا حول تلك الفترة .

تقدم مستمر ، تستهدف ، اعتمادا على تحليل تشوهات الهياكل العظمية المتحجرة ، تحديد الامراض او الحوادث التي يحتمل ان بشر ما قبل التاريخ كانوا ضحيتها . هكذا تضاف الى الصورة النظرية نسبيا التي تقدمها لنا الباليونتولوجيا صورة لبشرية عادية عانت من مرض المفاصل وتسوس الأسنان .

يتضح اذن ان علم آثار ما قبل التاريخ عبارة عن تحري حقيقي ، تقوم طبيعته على تحليل اقل الدلائل الاثرية ومقارنتها ببعضها بهدف التوصل الى منهج مترابط للتفسير . ولكي يؤدي هذا العلم الحديث مهامه ، يحتاج الى علوم اخرى مساعدة لا يزال دورها متزايدا في تقصي هذا الماضي الممتنع عن النصوص .

غير ان الدور الاساسي الذي تلعبه الوثائق المادية فيه تنوع بالنسبة للمراحل المتأخرة من عصور ما قبل التاريخ ، بعد ان ظهرت شواهد اخرى ليست مرتبطة مباشرة بالحياة المادية وبالتحكم في موارد الطبيعة . ويمكن القول ان النقوش والرسوم العائدة لآخر العصر الحجري القديم وخاصة الحديث (نيوليتيك) هي كتابة ، مع انها ليست ابجدية ، تدفع الى ادراك مغاير لما تتضمنه الوثائق المادية . وقد جرت محاولات لفك رموز فن ما قبل التاريخ هذا في جهات اخرى من العالم . واذا كانت نتائج هذه المحاولات ليست دائما مرضية فانها جديرة بان تدفعنا الى البحث خارج الطرق المعتادة والاحكام المسبقة عن معنى لعله يكون خارج ادراكنا .

تسهيلا للادراك ، قسمت مدة ما قبل التاريخ الطويلة جدا الى شرائح كرونولوجية كبرى تناسب التغيرات الهامة التي حدثت في المجال البشري ، وفي انماط المعيشة وفي الشروط المناخية ، وفي التقنيات .

جزئي الباليوليتيكي ، وهو العصر الحجري للقديم الى :

- الباليوليتي اسفل
- الباليوليتي اوسط
- الباليوليتي متأخر

اما النيوليتي ، وهو العصر الحجري الحديث ، يعد رديء التسمية ، اذ ان الحجارة كمادة اولية آنذاك ، قد تعرضت لمنافسة الطين . ويحتمل ان ظهور الفخار مرتبط بظهور الرعي والزراعة .

اما فجر التاريخ الذي يختم عصور ما قبل التاريخ ، فهو مرحلة غير محدودة ، ومعرفتها رديئة . لقد اتصفت بالتخلي التدريجي عن الأدوات الحجرية وبظهور المعادن وتطور المقابر الميغاليتية الكبرى . اما الكتابة التي

العصر الحجري الأعلى

حصارة الحصى المنحوتة :

تم العثور على أقدم الأدوات (أو الأسلحة) التي صنعها البشر في كثير من مناطق العالم وخاصة في افريقيا .

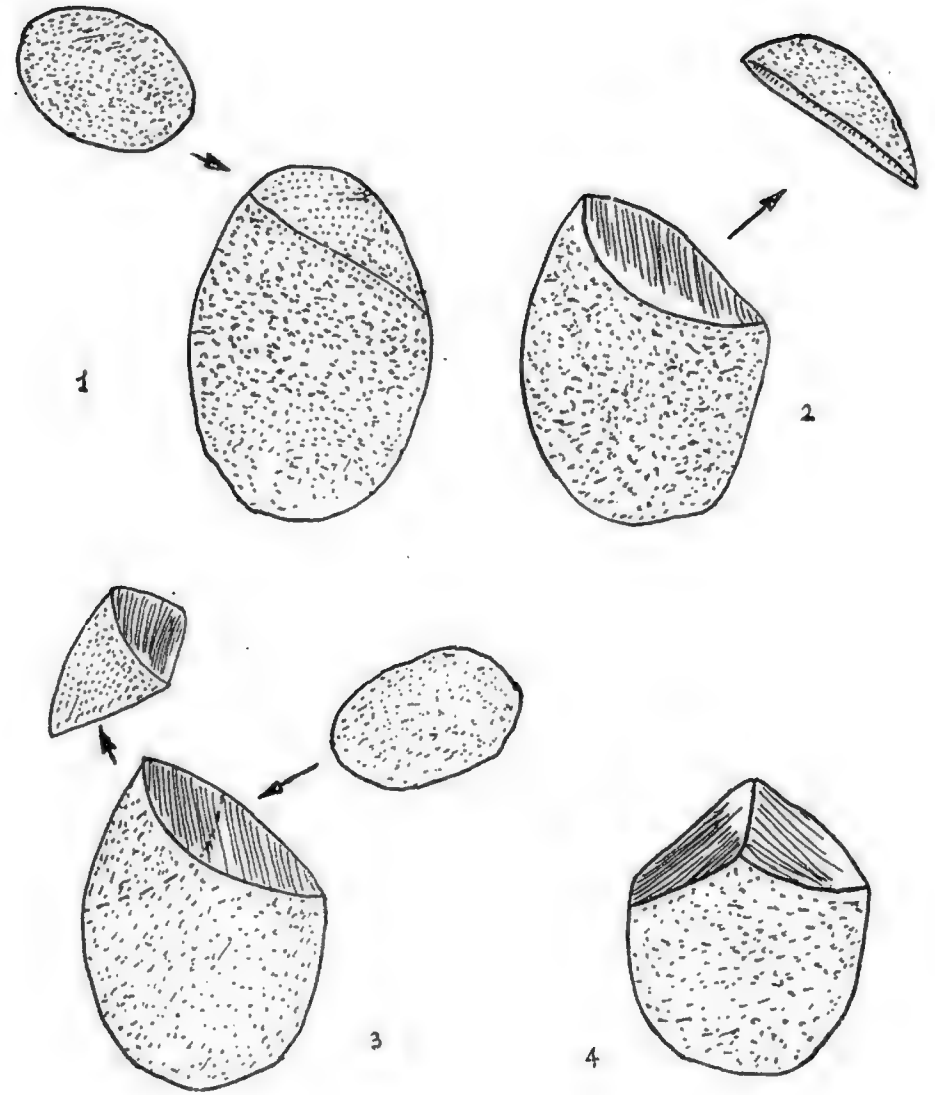
من المحتمل أن الناس كانوا يستعملون في البداية الحجارة أو الأغصان الموجودة في الطبيعة لكنهم شعروا بالحاجة في وقت ما الى نحت تلك الحجارة ، وهي عموما في شكل حصى ، كي تصبح أكثر فعالية .

وتقوم عملية نزع الزوائد اعتمادا على مراعاة محور واحد أو محورين متقابلين . ويحصل الصانع في جميع الحالات على قاطعة ، قد لا تكون منتظمة دائما ، ولكنها فعالة (شكل 4) .

وعندما تجري عملية التشذيب في اتجاهات عديدة يمكن أن تأخذ الحصاة شكلا كرويا متعدد الوجوه .

لقد عثر في الجزائر على مثل هذه الحصى ، خاصة في اقليم قسنطينة (منصوره) وفي الصحراء (رقان ، وادي السالورة ، في اقليم عين صالح) ، وعثر في عين حنش (العلة قرب سطيف) على كرويات متعددة الوجوه ضمن رسوبات تعود الى أوائل الزمن الرباعي (كواتيرنير) .

وعثر المنقبون أيضا في مغارات الساحل الأطلسي المغربي على حصى منحوتة ، بينما لم يعثر لحد الآن على ما يماثل هذا في تونس .



شكل 4 : - صناعة حصى منحوتة اعتمادا على محورين : رسم نظري

- 1 (الطريقة الاولى .
- 1 (نزع شظية أولى .
- 3 (الطريقة الثانية في اتجاه يعاكس الاتجاه الاول ، ونزع الشظية الثانية .
- 4 (الحصى المنحوتة هنا تظهر فيها قاطعة .

أما الانسان الذي صنع مثل هذه الحصى فلم يعثر له على أثر لا في المغرب ولا في الصحراء بينما اكتشفت في افريقيا الجنوبية والشرقية بقايا هياكل بشرية صحبة حصى منحوتة . انها أقدم أشكال خلفها البشر . حتى انه خلال الاكتشافات الأولى نسبت هذه البقايا الى قرد سمي أسترالوبيثك (أي قرد الجنوب) . ولا تقوم معلوماتنا اليوم على الأدوات التي كان يصنعها ولكن أيضا على هيئة هيكله العظمي ، وعلى الرغم من صغر حجم جمجمته (ما بين 450 الى 700 سنتيمتر مكعب) فان الاسترالوبيثك ، ورغم اسسه كان انسانا يمشي بعد على قدمين .

لم يكن هذا السماط البشري وحيد الفصيلة ، اذ نجد بعضا من الاسترالوبيثك أقوىاء وآخرين أضعف منهم . ويمكن الاعتقاد هنا أن صانعي أدوات عين حنش لهم علاقة قرابة ببشر الاسترالوبيثك الأفارقة .

الحضارة الأشولية :

أفضى التطور المتواصل في صناعة الأدوات الى ظهور أشكال جديدة متميزة ، أمتازت بها حضارة جديدة : انها الأشولية التي استمدت اسمها من سانت أشول ، وهي إحدى ضواحي مدينة أميان (فرنسا) ، حيث تم التعرف عليها لأول مرة .

يمكن تقسيم الأدوات الأشولية في الجزائر الى ثلاثة أصناف رئيسية : البيفاص (ذات الوجهين) والبليطة ، وثلاثية الوجوه .

واضح أن تقنيات الصناعة الحجرية قد عرفت تطورا هي الأخرى بالنظر الى المرحلة السابقة .

متزايد خلال هذه الفترة لقاذحة طرية ، من خشب أو عظم : من القاذحة الحجرية الصلبة . ان القاذحة الطرية تسمح بنزع شظايا أكثر رقة وهو ما يسهل استقامة القطعة بعد تشذيبها بقاذحة صلبة . ولكي تميز صناعات اليفاص أفضل عمد المختصون في ما قبل التاريخ الى تصنيف هذه الأدوات تبعا لأشكالها . ومن ثم أمكن تمييز اليفاص المثلثة الشكل ، واللوزية الشكل ، والتي تأخذ هيئة قلب ، والرمحية الشكل ، والبيضوية ، والتي ، على صور أقراص ، الخ ..

البليطات :

إذا كانت حافتا اليفاص تتصفان بالتناظر النسبي ازاء محور القطعة ، فإن البليطة أداة ذات حواف مستعرضة تأخذ اتجاهها عموديا على محور القطعة الكبير . ومن جهة أخرى فإنه على عكس مواصفات حرفي اليفاص المتحصل عليهما بلمسات مقصودة على الجانبين أو جعلهما أحيانا مستقيمتين بواسطة القاذحة المرنة ، فإن حرف البليطة ذو شروم ، لم ينله تهذيب أبدا .

وتفسر هذه الخصائص اعتمادا على التقنية التي أتبعت في صناعة هذه الأدوات ، تلك التقنية التي تطلبت ادخال سلسلة من العمليات المتعقدة ، هذا وصفها :

- اعداد الوجه الأعلى بواسطة نزع شظايا عديدة من الحصة تبعا لاتجاهات منطلقة من المركز .
- قطع شظية كبيرة تكون البليطة (شكل 5) .

ويتحصل على الحرف المستعرض اذن باتصال السطحين ، سطح الوجه الأعلى بسطح الوجه الأسفل . ويسكن اخضاع البليطة المصنوعة الى تشبيبات مناسبة تجعل حوافها منتظمة وقاعدتها أكثر رقة . ولكن هذه التشذيبات لا تصيب شكل الأداة بتغيير عميق .

وهذه الحضارة ممثلة بصورة جيدة في الجزائر والمغرب الأقصى ، أما مواقعها في تونس فهي أقل عدد (في سيدي الزين قرب الكاف ، وفي قصعة) . تتوزع المحطات الاشولية في الجزائر من الشرق الى الغرب ، نذكر من أهمها في الشرق : موقع الماء الأبيض (تبسة) ، وفي الجزائر الوسطى هناك موقع شامبلان (العميرية بولاية لمدية) . ونذكر في الغرب الوهراني موقعي بحيرة كرار واوزيدان (قرب تلمسان) ، وكذلك موقع تيرنيتين بالقرب من باليكاو . ومن مواقع الصحراء هناك موقع عرق تيهودين (طاسيلي ناجر) الذي توفر على آلاف من اليفاص والبليطات . ونذكر من مواقع المغرب الأقصى مغارات سيدي عبد الرحمن بالقرب من مدينة الدار البيضاء ، ومغارات تيمارا بالقرب من الرباط .

الأدوات :

اليفاص (صورة 4) .

انها أدوات متنوعة الأشكال ، ولكن شكلها العمومي مستطيل ، يمتاز دائما برأس حاد وبحافتين قاطعتين . كانت اليفاص تصنع من حصاة كاملة أو من شظية كبيرة منفصلة من حصاة . ويحصل على الشكل العام للأدوات بواسطة نزع شظايا كبيرة من وجهي القطعة . ومن هنا سميت ييفاص .

وتشمل عملية التشذيب أحيانا جميع أوجه القطعة الحجرية ، ولكن الصانع كان يترك تارة قاعدة الأداة سالمة (وهي الجزء المعاكس للرأس الحاد) .

تميزت المرحلة الاشولية الطويلة بتطور في صناعة اليفاص التي اتجهت نحو انتقاء كبير أدى الى ايجاد توازن أحسن في القطعة ، والى انتظام شديد في حافتيها الحادتين . ويفسر بعض هذا الانتقان باستعمال

فالبليطة هي اذن أداة يحدد شكلها العام مسبقا ، وتسمح الطريقة الأخيرة التي تفصلها عن الحصة (أو النواة) بالحصول على أداة صالحة للاستعمال .

وتوجد بمنطقة تابلالة - تاشنغت نماذج من البليطات ذات هيئة أنيقة خاصة بهذه المنطقة . تم الحصول على هذه الهيئة أيضا انطلاقا من اعداد الحصة النواة . الا أن هذا الاعداد كان أكثر تعقيدا من الذي سبق وصفه .

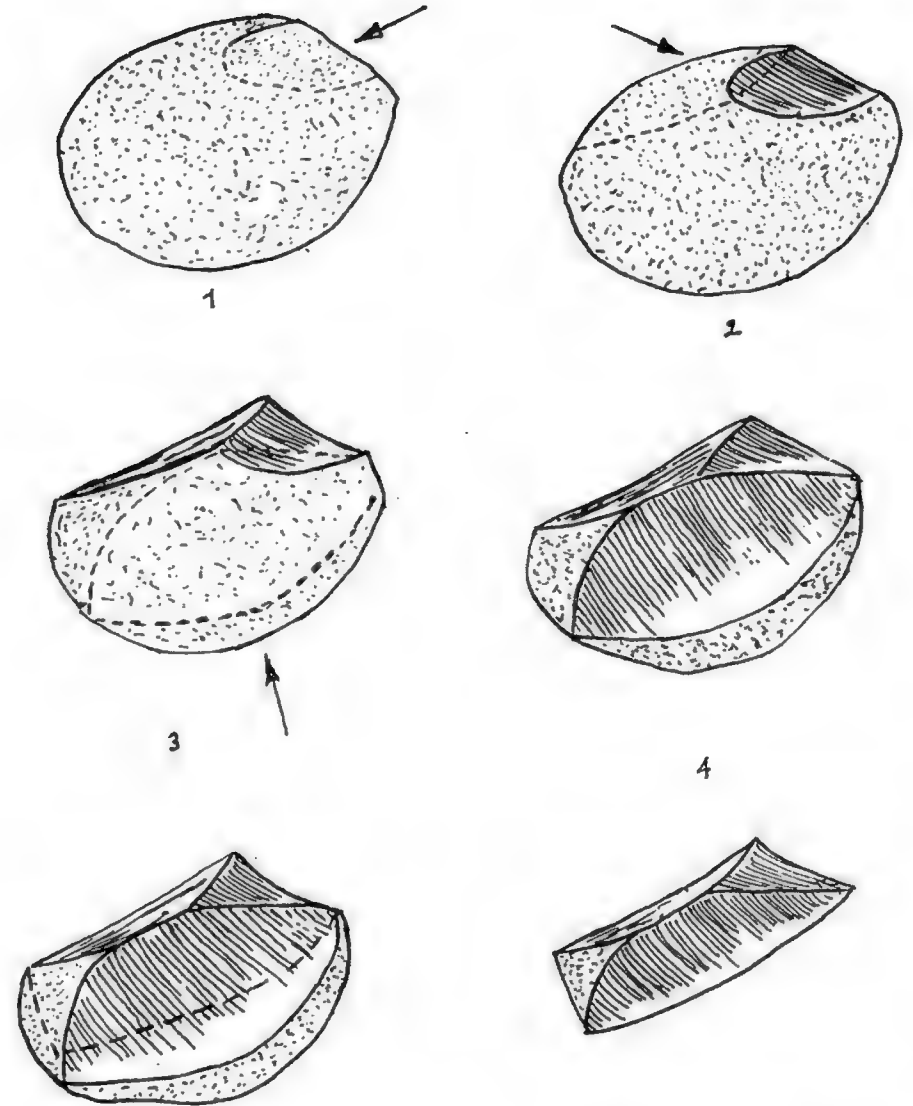
ثلاثية الوجوه :

ان هذا النوع من الأدوات الأشولية أقل وفرة من البيفاس والبليطات، وهي ذات نهاية حادة وقاعدة مثلثة . كان صانع ما قبل التاريخ هذه النهاية بواسطة نزع شظايا في ثلاث اتجاهات أو أكثر .

الانسان الأشولي :

على الرغم من تعذر العثور الى حد الآن على بقايا الأوسترالوبيثيك في بلاد المغرب فان عددا من مواقع الجزائر والمغرب الأقصى قد انكشفت للمهتمين بما قبل التاريخ عن بقايا كائنات بشرية ، هي لصناع البيفاس والبليطات . ولقد أطلق على هؤلاء الأشولين اسم أطلانتروب ، أي انسان الأطلس .

كما احتوت رملية تيريفين بالقرب من باليكاو (الجزائر) على بقايا فونا قديمة ، تعود الى أوائل الزمن الرابع ، مصحوبة بأدوات أشولية وبقايا بشرية نسبت الى انسان أطلانتروبوس موريطانيوكوس (أي انسان الأطلس الموريطاني) . وتتكون هذه البقايا من ثلاثة فكوك سفلى في حالة جيدة ، وجزء من جدار الجمجمة ، وبعض الأسنان المفككة (صورة 5) .



شكل 5 : - صناعة بليطة : رسم نظري .
 (1) القطع التمهيدي الذي يكون قاطعة الاوتاد .
 (2) (3) (4) القطعات الجانبية التي تعطي البليطة شكلها العام .
 (5) القدح الذي يفصل البليطة (6) التي تصبح قابلة للاستعمال .

أما الوثائق البشرية الأخرى العائدة الى انسان الأطلس فقد اكتشفت بالمغرب الأقصى وتتشل في قطعتين من فك أسفل ، عثر عليهما في ردوم إحدى المغارات (مغارة ليتورين) من المقالع الحجرية بسيدي عبد الرحمن على بعد بضع كيلومترات من مدينة الدار البيضاء .

وعثر في مقلع للحجارة الرملية بالقرب من الرباط على بقايا لقوس جمجمة وبقايا لفك أعلى وفك أسفل شبه كامل . كما عثر في مغارة المهرين بتيمارا (على بعد 10 كيلومترات جنوب غرب الرباط) على فك أسفل شبه كامل . وأخيرا تم العثور حديثا على فك أسفل في مقلع طوماس بجنوبي الرباط .

تعود جميع هذه المتحجرات البشرية الى مجموعة انسان الأطلس . غير ان وثائق المغرب الأقصى ، باستثناء فك مقلع طوماس ، يمكن أن تكون أحدث من مكتشفات تيرينفين ، وهكذا يبدو أن أناس الأطلس المغربي قد كونوا مجموعة انتشرت أثناء قسم من العهد الأشولي . وتحتوي بقاياهم على صفات مشابهة لمتحجرات تعود الى نفس العصر ، اكتشفت في الصين (سيناتروب) وفي جاوا (بيشيكاتروب) ، وفي افريقيا بسوق أولدواي (طنزانيا) .

تتصف نماذج انسان بيشيكاتروب بخصائص متشابهة . جماجمها مستطيلة (مفلطحة) ومسطحة . محاجر العيون فيها محاطة ببروز عظمي متين. الفك الأسفل قوي ، والذقن بارز . أما الأسنان فهي من النوع القديم ، اذ تتسم بالضخامة خاصة منها الطواحن ذات الجذور العميقة .

ليس من السهل معرفة الاطار المناخي ، والوسط (فونا - فلور) الذي كان يعيش فيه بشر العصر الحجري الأسفل ، وخاصة انسان الأطلس ، غير أن الفونا المكتشفة في عين حنش وفي مقالع المغرب الأقصى ، وفي تيرينفين ، تسمح بوضع مخطط أولي للوحة ستظل ناقصة وباهتة .

ان فونا عين حنش المعاصرة لصناع الحجارة مختلطة ، فهي تتضمن أصنافا متأخرة من الزمن التيرتياري ، وأخرى معروفة في الزمن الرباعي (كواتيرنير) . ولقد أعطت الفونا الأولى طابعا قديما لفونا أوائل الرباعي .

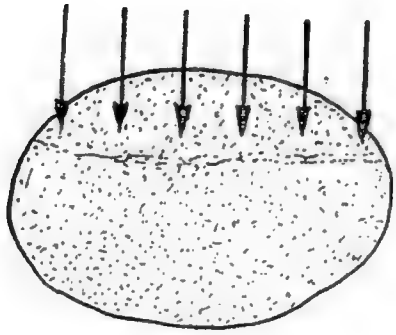
انقرضت أصناف الزمن الثلاثي (تيرتير) في المواقع الأشولية ، وخاصة منها في مواقع تيرينفين ، وأصبحت الحيوانات مكونة في معظمها من فونا السفانا الافريقية كالقيلة والكركدنيات البيضاء وحبير الزرد وأفراس البحر والظبي والزرافات ، ومن آكلات اللحوم كالأسود والفهود والضباع والذئاب والدببة ، الخ ..



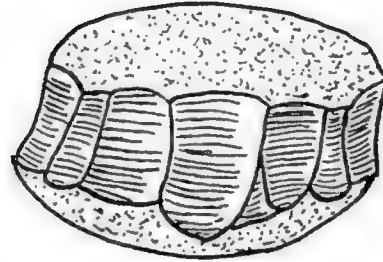
صورة 1 : - حفريات بتوقع كلومناطة (بيارت) . مربعا الحفرية محددة
 بخيوط مسدودة : وهو التريبع . هنا نموذج تريبع مركب .
 افقي ومائل ، بعا ميل الطبقة ، يظهر جيدا في المربع الموجود
 اعلى الشخص وعلى يساره .



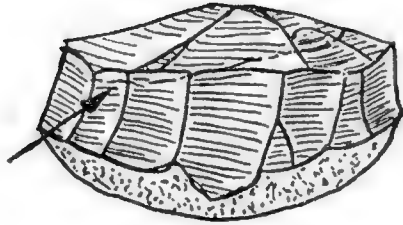
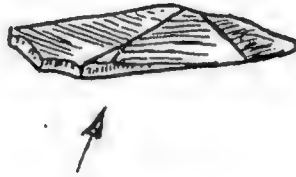
صورة 2 : - صورة فوتوغرافية لشريحة رقيقة من فحم ما قبل التاريخ
أخذت بواسطة مكبر (ميكروسكوب) . يسمح تحليل مثل هذه
المقاطع بتعريف الفحم .



1



2



3

شكل 6 : التقنية اللوفلوازية : رسم نظري لنزع شظية .

1 - 2) قطع أولي دائري لحصاة .

3) سلسلة من التشبيهاً على السطح العلوي للحصاة والطرق الذي يؤدي إلى نزع الشظية .

التي هي حرسنية غالبا ، حرفا أو اثنين . أما المحك فكان يصنع بتوجيه طرقات شبه عمودية تعطيه شكل قوس في نهاية الشظية أو الشفرة .

لكن أصالة الصناعة العاترية تكمن في أن الصناع قد جعلوا لبعض أدواتهم ذنبيات (شكل 8) . وقد تحصلوا على هذه الذنبيات (التي لا يظهر دائما تفعاها بوضوح) بأحداث تحزيزات في قاعدة الأداة .

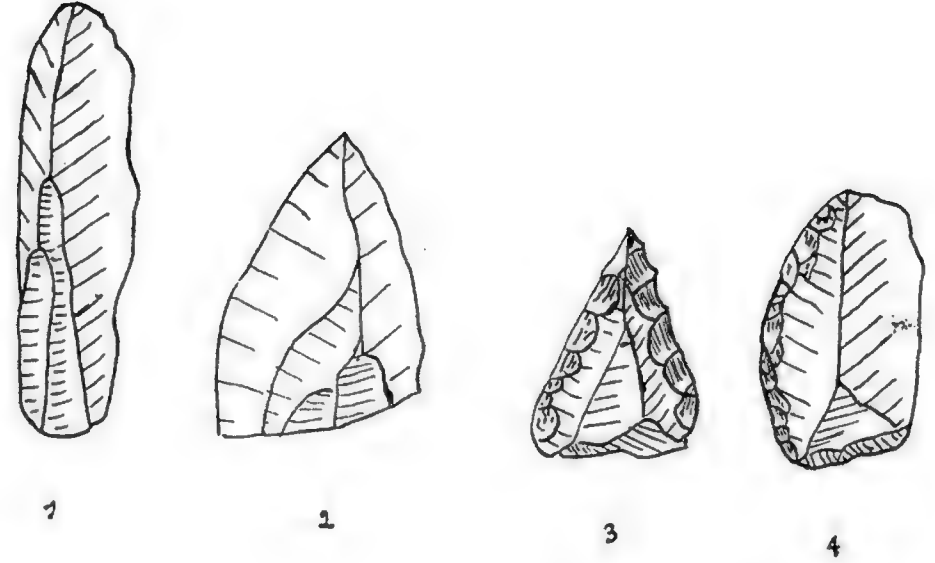
البشر ويبتهم :

يضاف الى جهلنا بصنائع الحصى المنحوتة من الاوسترالويثيك جهلنا الكبير بصنائع القطع الحجرية المذنبية في شمال افريقيا . فعلا ، انه على الرغم من كثرة المواقع العاترية لا يوجد من بينها موقع احتفظ ببقايا بشرية .

وكان الأمر كذلك الى وقت قريب بالنسبة للمواقع المoustيرية القليلة ، اذ لم يعثر سوى مؤخرا بمغارة جبل ارحود (المغرب الأقصى) على مجتمتين وجزء من جدار مجمعي ضمن أدوات مoustيرية متميزة تعود الى انسان نياندرتال (صورة 6) .

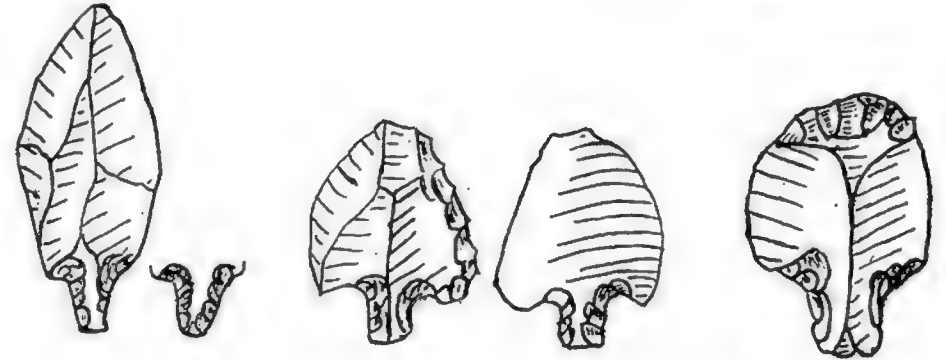
تظهر الملامح العامة لانسان نياندرتال بوضوح في متحجرات جبل ارحود . الجمجمة قصيرة ومستطيلة . يقترب حجمها من 1500 سم³ وهو أدنى من حجم جمجمة مثيله في أوروبا . محاجر العيون كبيرة ، مستديرة ومتباعدة ، يعلوها بروز عظمي متواصل يستد الى جانبي الوجه . الجبهة قصيرة ومتراجعة . الفك الأعلى متقدم . ويتصف فص الدماغ الخلفي بالانبطاط والاستطالة مكونا عقصة حقيقية . وهناك بروز عظمي سميك يحدد منطقة التحام عضلات القفا .

ان ما اكتشف بجبل ارحود لذو أهمية كبرى . ذلك أنه يكمل سلسلة المتحجرات البشرية التي تكون ، انطلاقا من انسان الأطلس الى الانسان العاقل ، الأساس الاثروبولوجي لمغرب ما قبل التاريخ .



شكل 7 : أدوات مoustيرية .

- 1 (شفرة لوفلوازية .
- 2 (شظية لوفلوازية .
- 3 (مخرز مoustيري .
- 4 (مكشط .



شكل 8 : أدوات عاترية مذنبية .

- 1 (مخرز .
- 2 (مكشط .
- 3 (محك .

اننا لا نعرف سوى القليل عن الشروط الطبيعية التي عاش فيها أناس العصر الحجري الأوسط . غير أن فونا وفلور هذه المواقع تعطينا بعض الدلائل .

لقد أعقبت الفونا المسماة « تشادي - زمبزي » العائدة الى الباليوليتيكي الأسفل (العصر الحجري الأسفل) ، فونا عاشت على الخصوص في الغابات المتوفرة على أعشاب السفانا ، ومنها الايلة (الوعول) والخنازير والدببة والكركدنيات وأفراس البحر والفيلة الخ ..

يحتمل أنه قد طرأ على المناخ تغير خلال تلك المرحلة الطويلة . وبعث تنوع الفاور في موقع القطار (قرب قصبة) تبعا للمستويات الأثرية على التفكير في أن المناخ كان دافئا رطبا في بداية العمران بالموقع ، ثم تحول في نهايته الى مناخ أكثر جفاف وبرودة .

وفي هذا الاطار ، فانه على الخلاف الكبير مع الوقت الحاضر ، كان الناس يقتاتون من الصيد ، وفي الشواطئ على جمع القواقع . ولقد قدم لنا موقع الخنازير (بحيدرة) كمية كبيرة من عظم الحيوانات المستهلكة من طرف سكان الموقع . وضمن كتلة العظام التي تصلبت مع الزمن حتى أصبحت أكثر متانة من الصخرة ، يمكن التعرف على ما يلي : الخنازير ، الكركدن ، الضربان (الشيهم) ، الجاموس القديم ، وبعض الحيوانات المفترسة الخ ..

وتوجد بعض المواقع على الساحل بالقرب من عين تاقورايت (بيرار) عشر فيها على رخويات صدفية (سميت ببساطة عظاما) استهلك من طرف العاترين .

العصر الحجري الاوسط

تلت الحضارتين الموستيرية والعاترية مجموعة أخرى من الحضارات المتشابهة فيما بينها ولكنها أصيلة . لقد تطورت معظم هذه الحضارات خلال العصر الحجري ، مما أهلها لأن تكون حضارات العصر الحجري المتأخر . وقد انتشرت في المغرب كما تغلغل بعضها داخل الصحراء وفي المناطق المحاذية لها .

يمكن جمع هذه الحضارات ضمن ثلاث عناوين عامة هي :

- الحضارة الايبيرو — مغربية .
- الحضارة القفصية .
- حضارات أخرى لا تنتمي لأي من المجموعتين السابقتين .

أما البشر أصحاب هذه الحضارات فهم من فصيلة الانسان العاقل المتحجر المختلف عن سلفه انسان نياندرتال . غير أن هناك عدد من المميزات موجودة ضمن هذا الصنف ، وخلال مرحلة العصر الحجري المتأخر ظهر نوعان مختلفان في المغرب من الانسان العاقل : أولهما هو المعروف بانسان مشتي العربي (أو مشتي أفالو) ، وثانيهما الانسان المعروف بما قبل المتوسطي .

يمثل العصر الحجري المتأخر ، فيما عدا بعض التنوعات ، مميزات عامة جديرة بالوصف . شهد العصر الحجري المتأخر ، وهو مرحلة الانسان العاقل ، ازدهار حضارات اشتهرت فيها صناعات حجرية دقيقة تمتاز بالتخلي عن التقنية اللوفلوازية في اعداد النواة وبالدور الهام الذي لعبته الشفرات والنصال العادية والدقيقة ضمن الأدوات . كما أبرزت هذه الأدوات الخفيفة تنوعا كبيرا بالمقارنة مع ما عرف عن أدوات الحجري الأوسط . وظهرت خلال هذه المرحلة على الخصوص أدوات

جديدة مخصصة للطحن ، وأخرى من العظم المصقول . كما ظهر استعمال بيض كأوعية ، بل استعمل كمادة خام حقيقية في صناعة قطع الحلي .

وأخيرا ، فإن مرحلة العصر الحجري المتأخر هي التي شهدت بوضوح كبير ظهور الطقوس الجنائزية وممارسة البحر وبداية الفن الذي سيعرف انطلاقا كبيرة خلال مرحلة الحجري الحديث (نيوليثيك) .

الحضارة الايبيرو - مغربية :

إنها أقدم حضارات العصر الحجري المتأخر في المغرب ، وتؤرخ بدايتها بموالي 12320 سنة قبل ميلاد المسيح في موقع مغارة راسل (شنوة) . بينما يعود أحدثها إلى حوالي الألف التاسعة قبل الميلاد . ولكن لا يوجد ما ينفي القول بقدوم هذه الحضارة ، وتجاوزها لهذه البداية ، أو تواصلها فيما بعد الألف التاسعة .

تم اكتشاف هذه الحضارة في بداية القرن الحالي ، وهي تستمد اسمها من نظرية قديمة تقول بأن هذه الحضارة قد وجدت في كل من المغرب وإسبانيا . غير أن هذه النظرية قد تجاوزها الزمن وتزكت ، لكن التسمية ما تزال مستعملة .

إن مواقع الحضارة الايبيرو - مغربية كثيرة ، وتوزع على طول سواحل المغرب ، من عنق خليج قابس إلى التواطية الأطلسية ، مع اختناثها في بعض المناطق (الساحل التونسي مثلا) . ومع أن هذه الحضارة ذات طابع ساحلي إلا أنها توغلت أحيانا نحو الداخل (تيارت) - (بوسعادة) .

تم التعرف على نماذج من مخلفات الايبيرو - مغربية لأول مرة في موقع قرب لاله مغنية بالجزائر ، وبالتحديد في مخابيء المويلح . ومن بين مواقعها الهامة أيضا في الجزائر نذكر كلومناطة (قرب تيارت) ، ومغارات تمارهات وأفالو بورمل (في عنق خليج بجاية) ، ومغارة راسل بشنوة ، أما في تونس ، فهناك مواقع وشتاتة ، وموقع وادي العكاريت (قابس) الذي لا يزال اتسابه إلى الحضارة الايبيرو - مغربية محل نقاش . ونذكر أخيرا المغارة الهامة بتافورالت (شمال وجدة) بالمغرب الأقصى .

الأدوات :

أدوات حجرية :

تتكون معظم الأدوات الحجرية المنحوتة من النصال المستخرجة من نوى الصوان الصغيرة التي يعد نحتها أبسط مما كان عليه الأمر في العصر الحجري الأوسط . كان الصناع يكتفون بإزالة إحدى نهايتي الحصة أو كليهما كي يحصلوا على سطح مستو يسمى مستوى الطرق وهو الذي يسهل قطع النصال (شكل 9) .

استعمل صناع الحضارة الايبيرو - مغربية أيضا الشفرات والشظايا ، ولكن بكميات أقل .

يتكون مجموع الأدوات عموما من نسب مختلفة من النصال . ولكن النسب دائما مرتقعة ، وهي ذات حد أعيد نحته بواسطة طرقات مائلة كونت منه حرفا مشدوبا ، أو ظهرا سميكاً أحيانا . أما قاعدة النصلة فقد شذبت بصفة دائرية ، أو بترت تماما (شكل 10) . تتصف أوجه هذه النصال بالتنوع ، بينما يأخذ الظهر فيها شكلا مستقيما أو مقوسا أو محدبا .

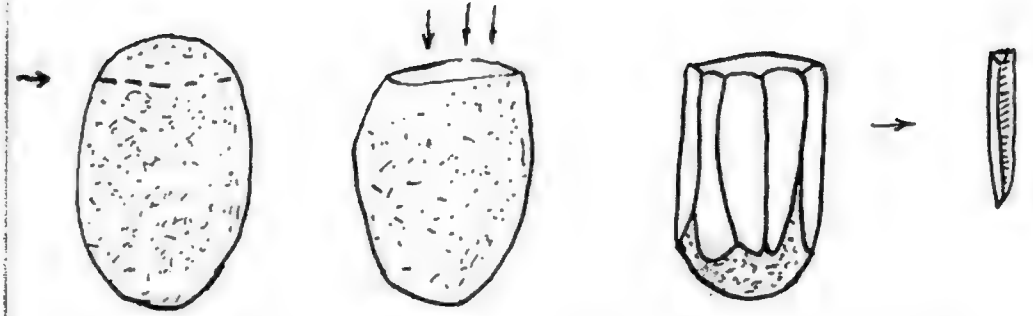
يعتمد أحيانا الى كسر النصال تبعا لتقنية خاصة ، تدعى بتقنية الازميل الدقيق (شكل 11) . وهي تتطلب استعمال قادح لاحداث تحزيزة على حافة النصلة ، وتعمق تدريجيا الى أن تنكسر النصلة تبعا لزاوية غير محددة . ينتج من ذلك جزء من النصلة وبقية تدعى ازميل دقيق . ولهذا الأخير شكل متميز جدا ، اذ يظهر على سطحه العلوي جزء من التحزيزة ، وعلى الجهة المقابلة وجها الانكسار في شكل حلزوني . ويحتمل أن هذه التقنية كانت تستخدم قصد الحصول على نصال ذات نهاية حادة ، أو على أدوات دقيقة هندسية الشكل (أنظر ادناه ص 61) . ويلاحظ أن هذا الصنف الأخير من الأدوات قليل الوجود في الصناعة الايبيرو - مغربية ، بينما هي كثيرة الانتشار في الصناعة القفصية .

فضلا عن النصال ذات الحد المشدوب والأزاميل الدقيقة ، احتوت الصناعة الايبيرو - مغربية كذلك على المكاشط خاصة ، وعلى قطع مخززة ومسننة (شكل 12) .

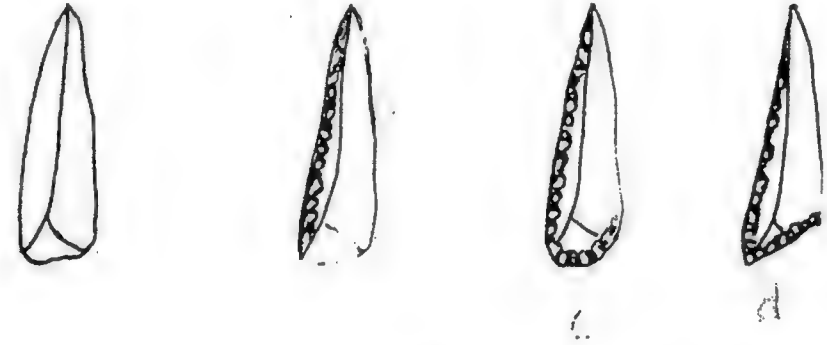
وعثر كذلك في خفريات المواقع الايبيرو - مغربية على أدوات حجرية غير منحوتة ، خاصة منها المطاحن ، وهي الحصى المستعملة في سحق مواد التلوين ، وربما كذلك في طحن الحبوب البرية . وقد أدى عمل الطحن بالحك الى تغيير شكل الحصاة المستعملة ، فأصبحت مكورة ملساء . يضاف الى ذلك وجود سنديانات وهي حصى تحمل في وسطها أمارات طرق متوالية .

أدوات من العظم المصقول :

يعتبر استعمال العظم كمادة أولية احدى مميزات حضارات العصر الحجري المتأخر . لقد استعملت في بادئ الأمر ، وحسب الحالات ، عظام طويلة مقسومة طويلا ، أو قضبان مفصولة من العظم . وقد شمل الصقل العظم كله أو جزءا منه ، واتصفت الأدوات المتحصل عليها تبعا

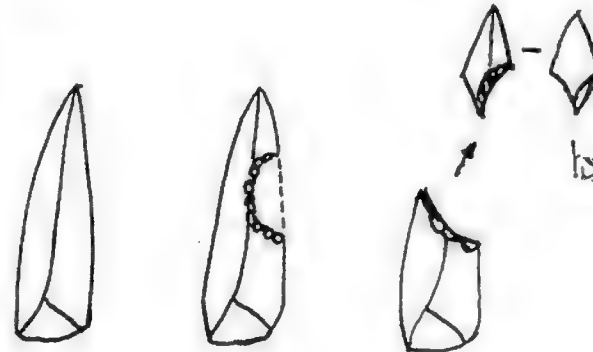


شكل 9 : نواة ايبيرو مغربية ذات مستوى طرق واحد ، نزع النصال .



شكل 10 : نصال ايبيرو - مغربية.

- (أ) نصلة أولية .
- (ب) نصلة ذات حافة مشدودة .
- (ج) نصلة ذات حافة مشدودة وقاعدة دائرية .
- (د) نصلة ذات حافة مشدودة وقاعدة مبتورة .



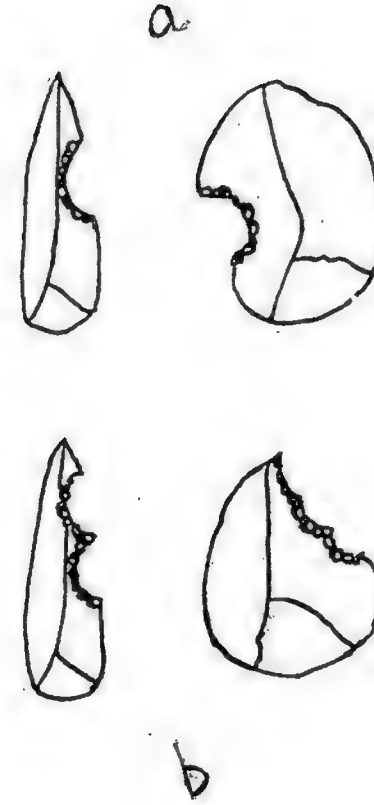
شكل 11 : كسر نصلة بواسطة تقنية الازميل الدقيق .

- (أ) نصلة مخززة .
- (ب) يظهر الازميل الدقيق بوجهيه بعد الكسر .

صورة 10 : نوط ابيرو - مغربي .
ثقب الجزء السفلي من القوقعة من
اجل خيط التعليق .



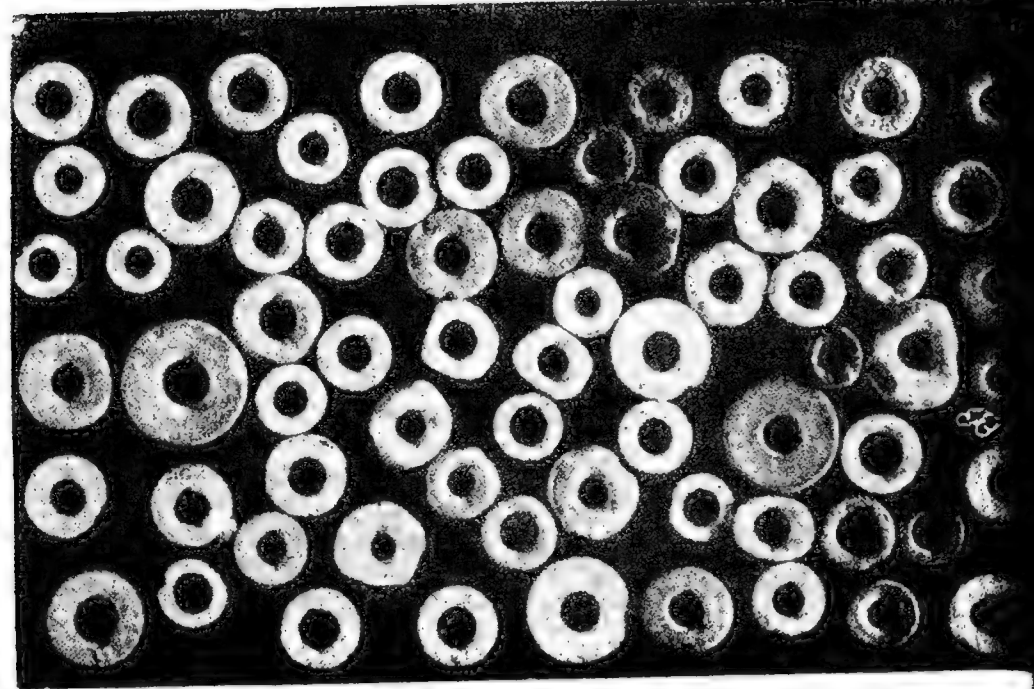
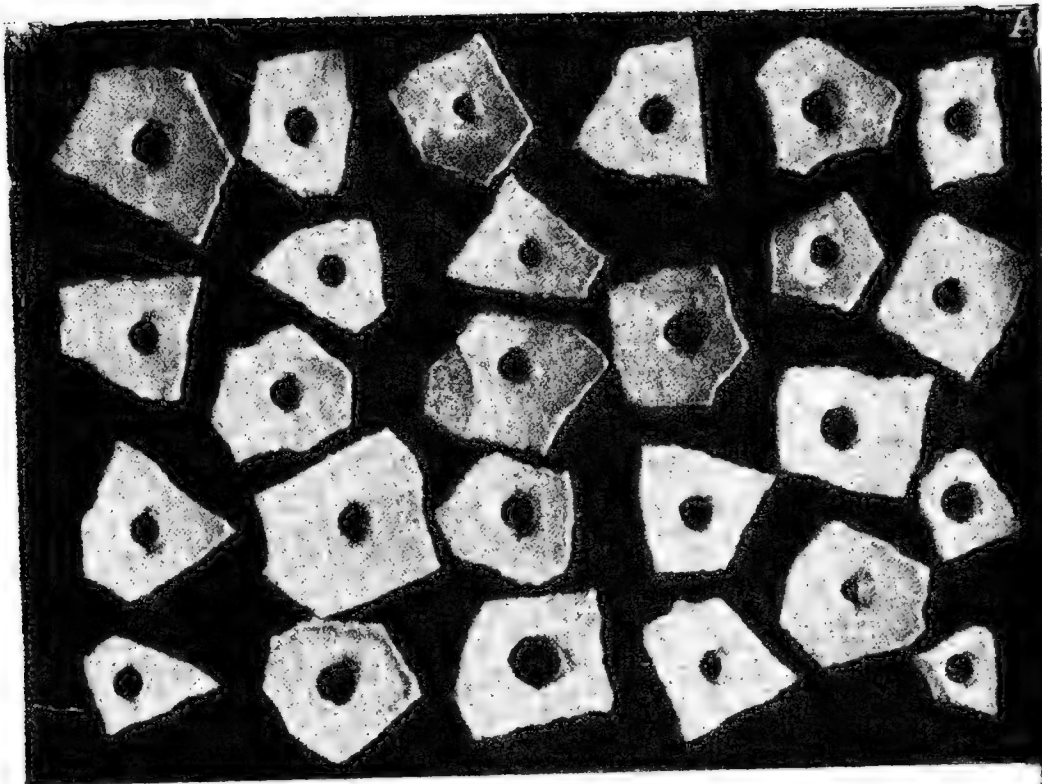
صورة 11 : تجربة في نحت الصوان :
استعمال اداة قطع الشفرة ،
ممسوكة باليد اليسرى وموضوعة
على حافة النواة . وفي اليد اليمنى
قادح ، وهو هنا قطعة من الخشب
الاسطوانية الشكل .

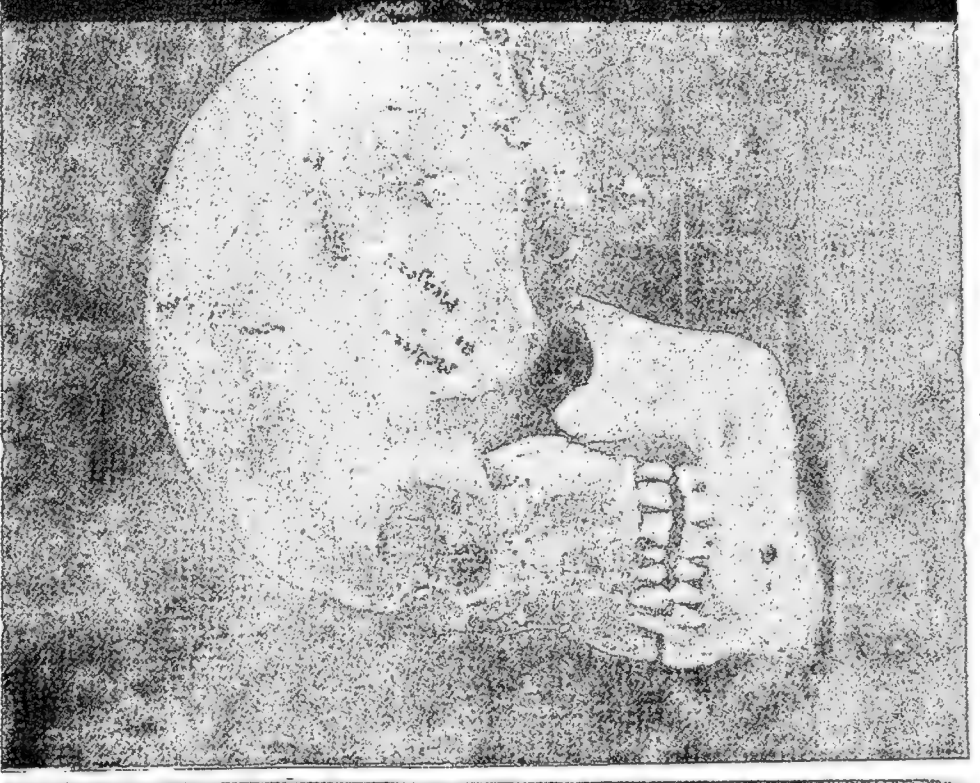


شكل 12 : نصال ابيرو - مغربية .
ب (نصلة وشظية مسننة .
ا (نصلة وشظية محززة .

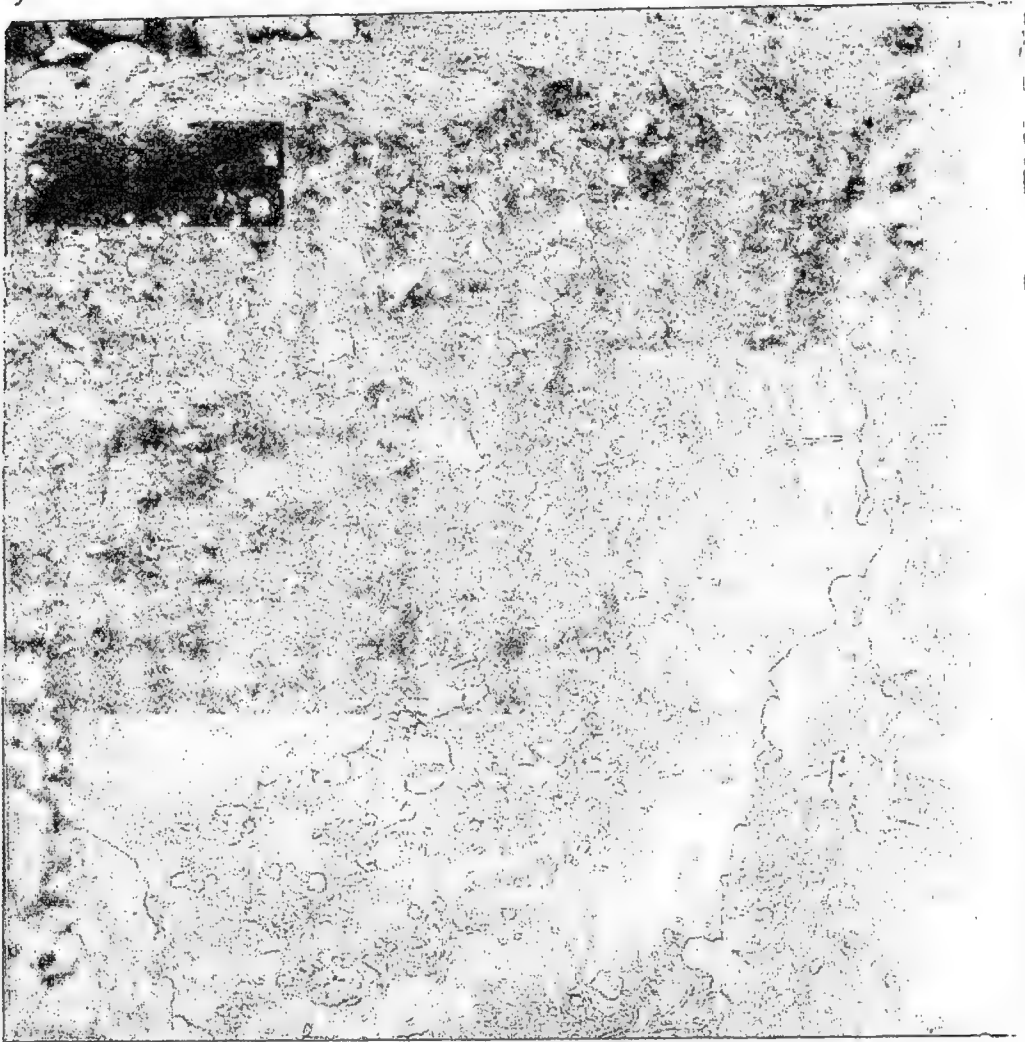
صورة 12 : خنجر من العظم المصقول (على اليسار) .



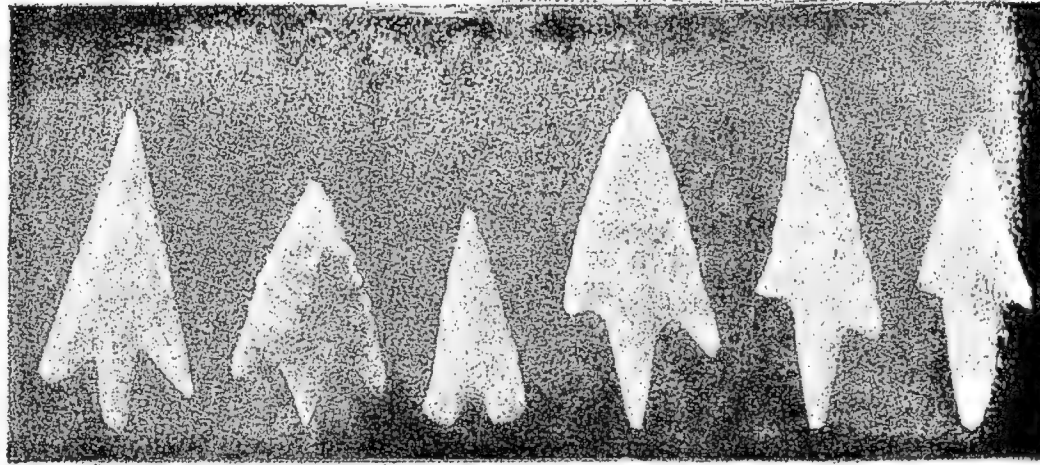
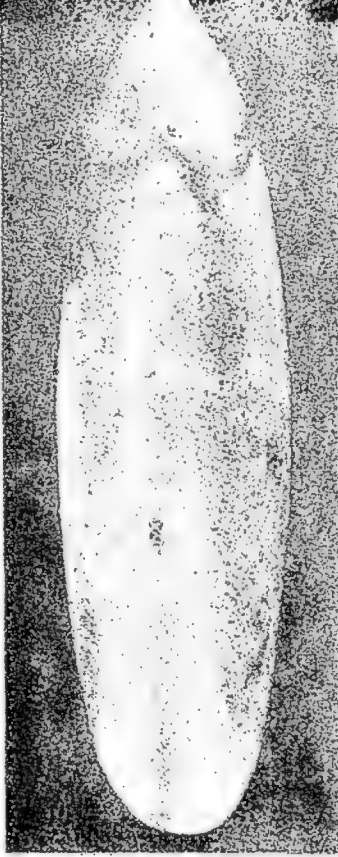




صورة 15 : نموذج الانسان العاقل في أواخر العصر الحجري القديم :
 انسان مشتق العربي على اليسار ، وانسان ما قبل المتوسطي
 على اليمين .



صورة 16 : مقطع في حلزونية عين بوشريط (العلمة) : يظهر الحلزون
واضحا جدا وهو مختلط بالحجارة .



صورة 17 : الفن القفصي : وجه منحوت من موقع المقطع (تونس) .
 صورة 18 : فؤوس نيوليتية مصقولة .
 صورة 19 : رؤوس سهام نيوليتية .



صورة 20 : شق رحى حجرية من العصر النيوليتي .



صورة 21 : فخار نيوليتي ، قارن بالصورة 30 .

لذلك بالطول وقلة العرض ، أما القاعدة فهي دائرية أو بيضوية أو اهليجية .. تندرج الأدوات العظمية ، حسب أوجه نهاياتها ، ضمن ثلاث مجموعات كبيرة (صورة 8) :

— أدوات ثاقبة ذات نهاية حادة .

— أدوات مثلمة ذات نهاية ملساء أو دائرية .

— أدوات قاطعة ذات حد مائل .

لقد عرفت الحضارة الايبيري — مغربية بالخصوص الأدوات الثاقبة المخارز ، والأدوات القاطعة كالتقاطعات ذات الاشكال المختلفة .

البشر وأنماط معيشتهم :

ان بشر الحضارة الايبيري — مغربية معروفون جيدا بفضل الهياكل العظمية الكثيرة التي تم العثور عليها في مختلف المواقع ، وخاصة منها المقابر الثلاثة الكبرى بكل من أفالوبورمل (بجاية) ونافورالت (شرق المغرب الأقصى) وكلومناطة (تيارت) .

دفن في هذه المقابر عدة مآت من الأشخاص ، من الجنسين ومن مختلف الأعمار . وقد سمحت أقدم الحفريات (1930) بأفالوبورمل بالتعرف على نموذج الأيبيري — مغربي . ثم مكنت دراسات أحدث من السالفة ، أجريت في تافورالت وكلومناطة ، من الاطلاع على فروق دقيقة ضمن هذا النموذج ، وذلك بما يوجد من تنوعات فيزيائية هامة أحيانا بين موقع وآخر . لكن يظهر أن هؤلاء الأفراد ينتمون الى نموذج واحد ونوع واحد من الانسان العاقل ، وهو النموذج المعروف بانسان مشتي العربي (اسم موقع موجود بين سطيف وقسنطينة) أو انسان مشتي أفالو (صورة 9) .

يتصف رأس انسان مشتي العربي بالخشونة ، للجمجمة شكل مخمس أو بيضوي ، وهي ذات طول أكثر من العرض في نموذج أفالو وتافورالت ، بينما عرضها أكثر من طولها في نموذج كلومناطة . أما الجبهة فقليلة البروز ومتراجعة نسبيا ، وأقواس الحواجب متصلة ، وتكون نقطة اتصالها تنوعا عظريا بارزا جدا عند الذكور .

يمتاز الوجه بالقصر والعرض . أما محاجر العيون فهي مستطيلة ومتباعدة . الذقن بارز جدا ، أما زاويتا الفك الأسفل الداخلية والخارجية فكثيرا ما تكونان منحرفتين . والعرف الصاعد للفك الأسفل عال وسميك .

توحي بقية الهيكل العظمي بأن انسان أفالو وتافورالت كان قويا : أطرافه طويلة وكتفاه عريضتان وحوضه ضيق . له قامة طويلة بلغت 1.75 م بينما كان انسان كلومناطة أقل طول حيث تراوحت قامته ما بين 1.60 م و 1.70 م .

لا يزال أصل الانسان الايبيري — مغربي موضوع نقاش . وكان يعتقد لمدة طويلة أن أصله من الشرق ، وأنه وصل الى المغرب عن طريق الجنوب التونسي . غير أن اكتشاف أوائل انسان نياندرتال بجبل ارحود سمح بالتفكير بحذر في الأصل المحلي لانسان مشتي العربي . فقد عاش هذا حتى العصر الحجري الحديث ، حيث بقيت آثاره خاصة في اقليم وهران . ثم اختفى فيما يبدو أواخر ما قبل التاريخ . ويعتقد حاليا أن قسما من أحفاد انسان مشتي العربي يسكن جزر الكناري .

ان المعلومات المستخرجة من دراسة المواقع تسمح لنا بالتعرف على حياة هؤلاء البشر من أوائل الانسان العاقل . لقد كانوا يقيمون خاصة في المناطق الساحلية وفي التل أحيانا . ورغم أن المناخ آنذاك لم يكن يختلف كثيرا عن المناخ الحالي ، الا أنه ربما كان أكثر برودة ورطوبة

مما هو عليه الآن . كانت سكنى الكهوف والمخابيء أكثر شيوعا وغالبا ما كانت الكهوف متجهة نحو البحر الذي كان مستواه أكثر انخفاضا مما هو عليه الآن وكان الناس يعيشون من القنص . وليس مستحيلا أن الأعداد الهائلة من النصال التي صنعوها كانت تستخدم كرؤوس سهام . لذا اقتنصوا في المرتفعات الخلفية الزاخرة بحيوانات القنص ، الضبي والغزال والبقر البري والخنزير الوحشي وكثيرا من صغار القواضم والطيور الخ ..

وكثيرا ما كانوا يكملون وجباتهم من منتوجات الصيد البحري أو بالحازون البري . ولكن فواقع المحارات كانت تجمع لغرض آخر ، هو صناعة قطع الزينة .

ليس لدينا ما يؤكد تناول هؤلاء البشر لغذاء نباتي ، ولكن هذا شيء محتمل جدا اذ يمكن أنهم استغلوا الموارد الطبيعية ، واستهلكوا العنبات البرية ، وكذلك الجذور ، ونباتات أخرى مغذية .

لهم يكن الغذاء الطبيعي وحياة العراء كافيين لحماية أولئك البشر من التعرض للمرض . ان دراسة تشوهات الهياكل العظمية سمحت بتحديد بعض الأمراض . وكان مرض المفاصل والتسوس ودماملات الاسنان أمراضا شائعة ، غير أن مرض الكساح وسل العظام فلم يكونا معروفين ، ويمكن تفسير ندرة انكسارات العظام وكثرة الشقات في الفقرات بأن ذلك علامة على حياة الهدوء والاستقرار .

لا نعرف سوى القليل عن معتقدات الأيبيري - مغاربة ، مع أن الملاحظات حولها كثيرة من ذلك أنهم كانوا يمارسون عند البلوغ عادة قلع بعض الأسنان ، وكان القلع عامة يتناول قواطع الفك العلوي دائما . ولعلهم كانوا يمارسون هذه العادة كطقوس للانتقال من مرحلة المراهقة الى سن الرجولة .

كما كانوا يمارسون ، مثل القفصيين بعدهم ، عادة صبغ الجسم ، حيث عثر في معظم مواقعهم على بقايا كثيرة من مواد التلوين (مغرة حمراء وصفراء ومنغنيزا) ، فهل كان لهذه المواد الملونة فضيلة خاصة ؟ لقد وضع عند رأس أحد الهياكل العظمية بأفالوبورمل كتلة كبية من معدن الحديد (حديد أوليجيست) .

صبغ هؤلاء البشر أجسامهم ، ومن المؤكد جدا أنهم تزينوا بالعقود والنوط والحروز فاستعملوا لذلك قواقع وثقبوها كي يسهل امرار خيط لتعليقها (صورة 10) .

تدل وضعية الجثث المكتشفة خلال الحفريات ، بوضوح على وجود طقوس جنازية ، من ذلك أن الموتى كانوا يقبرون ولا يتركون مهملين . وكان للجثة وضعان متميزان ، حيث تطوى على نفسها وتسندها على الجنب أو الظهر ، وأحيانا يعثر على عظام مسجاة بدون انتظام ، وليس بينها اتصال ، والظاهر أن هذه الحالة كانت نتيجة لطقوس إعادة الدفن التي كانت تجري بعد أن تتخلص الجثة من اللحم .

وأخيرا فان مواقع بعض الجثث قد حددت في كلومناطة بكومات من الحجارة وقطع حجرية قائمة ، وهو ما يشكل آثارا جنازية حقيقية .

الحضارة القفصية :

ظهرت هذه الحضارة بعد الأيبيري - مغربية . ومجال انتشارها الجغرافي مختلف . لقد عرفت في بداية الأمر باقليم قفصة ومن هنا سميت بالقفصية (وهو اسم المدينة القديم) . وسمح تطور الأبحاث الأثرية فيما بعد بتحديد أماكن قفصية خارج خليتها الأولى : في جهات سطيف وقسنطينة وكذلك بعيدا في اتجاه الغرب حتى اقليم تيارت . أما

في المغرب الأقصى فلم يعرف أي أثر للحضارة القفصية هناك حتى الآن ،
وزيادة على ذلك فحيثما وجدت القفصية لا تصل الى السواحل أبدا .

تم تعريف هذه الحضارة في موقع المقطع (قرب قفصة) . ومن العدد
الكبير من مواقعها الهامة في الجزائر. نذكر في اقليم تبسة : مواقع ارفانة ،
وقلعة المخاد وعين الذكارة ، ثم موقعي المجزوعين بوشريط في اقليم
سطيف ، وموقعي كلومناطة وعين كيدا قرب تيارت .

سادت لمدة طويلة فرضية تقول بأن تطور الحضارة القفصية مر
بمرحلتين : مرحلة قديمة ، كانت القفصية فيها محدودة في اقليم قفصة
وتبسة ، وكانت أدواتها خشنة ، فسميت لهذا السبب بالحضارة القفصية
النموذجية . ثم عرفت توسعا حقيقيا على يد رجال انطلقوا من الموطن
الأول ، وصنعوا أدوات صغيرة أكثر دقة وخفة ، وهذه المرحلة الثانية
هي التي سميت بالقفصي الأعلى . ولتنتين هذه الفرضية كان يجب أن
يكون القفصي النموذجي أقدم ، بطبيعة الحال ، من القفصي الأعلى ،
ولكن هناك أعمالا أثرية حديثة بينت معاصرة الثاني للأول أو تأخره عنه
أحيانا ، ومن ثم فانه اذا حافظنا على هذا التمييز بين القفصيتين ، فلم
يبق لهما نفس المدلول . انه ليصعب في الوقت الحاضر وضع القفصي
النموذجي أصلا للقفصي الأعلى ، اذ أنه ربما كانت العلاقة بينهما شبه
لا غير ؟ .

لقد ظهرت الحضارة القفصية بعد الحضارة الأيبيري - مغربية بزمان
طويل ، ذلك أن أبعد تاريخ لها حدد في موقع عين ناقة (مسعد) بـ 7350
سنة قبل ميلاد المسيح . بينما يدور آخر التواريخ القفصية أواخر الألف
الخامسة (حوالي 4390 ق . م) بموقع كلومناطة القفصي .

تدل هذه التواريخ اذن ، وبصورة مؤقتة ، على تواصل الحضارة
القفصية لمدة ألفي سنة .

الأدوات :

على عكس أناس الأيبيري - مغاربة فان القفصيين لم يصنعوا نصالا
كثيرة ، واستعملوا الشفرات والشظايا بكثرة . ولقد صنعوا الشفرات
بأسلوب خاص ، حيث كانوا يضعون بين النواة والقادح ازميلا ، ربما
كان من العظم ، مما يسمح بتحديد مواقع الطرقات بدقة أكبر (صورة
11) . كما أنهم كانوا ربما ينتزعون الشفرات بطريقة الضغط ، وذلك
باستعمال عكاز في شكل جهازت نهايته السفلى برأس حاد ، وكان
يوضع العكاز على سطح النواة المعد للطرق . ويسمح الضغط على
عارضته بالصدر بنزع الشفرات .

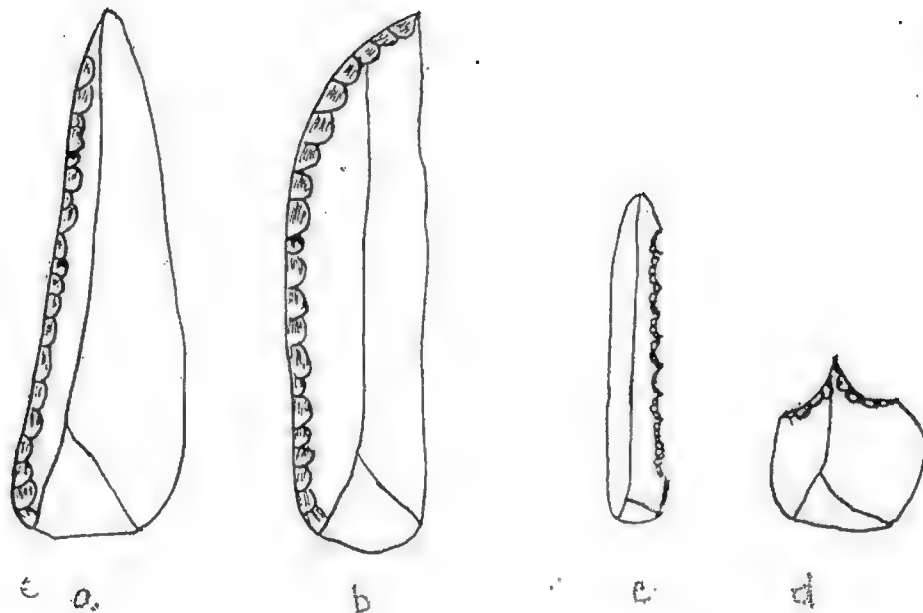
وهكذا تأخذ نوى الشفرات شكلا هرميا منتظما ، بينما تأخذ التي
تنزع منها الشظايا أشكالا غير منتظمة .

ثم تمر هذه الشظايا والشفرات والنصال بعد ذلك بعمليات نحت
ثانوية كي تصنع منها أدوات وأسلحة . ونذكر من مجموعة الأدوات
القفصية المختلفة ما هو شائع أكثر :

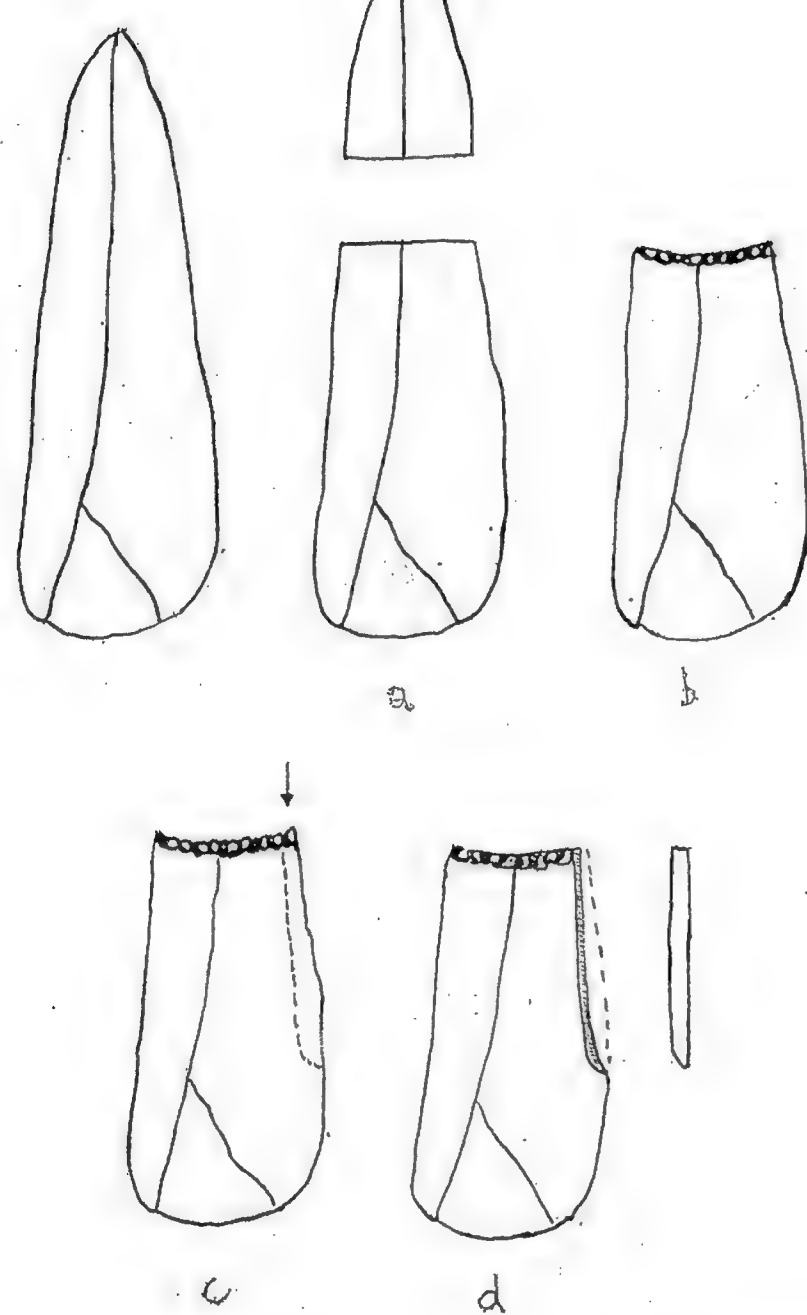
— المحكات (أنظر أعلاه ص 34) .

— المخارز المصنوعة من شظية أو شفرة أو فصلة ، وهي تنتهي
بتحزيرتين عميقتين تكونان رأسا حادا أحيانا (شكل 14) .

— الأزاميل المصنوعة عموما من الشفرات (شكل 13) ، وفي الغالب
كانت الشفرة تبتر عرضيا ، ثم يعرض سطح الانكسار الى طرق موزع
على رؤوس الزاويا فتتطاير ابر رفيقه من الصوان تدعى « سواقط
الازميل » . وقد تعرض هذه الدقائق للمسبات أخرى كي تصبح نصالا .
أما الأزميل فيشكل حافة ذات زاوية حادة وسنا قوية قاطعة .



شكل 14 : أدوات قفصية :
 (أ) شفرة ذات حافة مشدوبة مستقيمة .
 (ب) شفرة ذات حافة مشدوبة مقوسة .
 (ج) منشمار .
 (د) مخرز في أعلى الشظية .



شكل 13 : صناعة ازميل قفصي : رسم نظري .
 (أ) بتر الشفرة .
 (ب) تشذيب سطح الكسر الذي يستعمل سطحا للطرق .
 (ج) « ضربة ازميل » .
 (د) الازميل و « السواقط » التي فصلت عنه .

— تعرضت الشفرات الكبرى أحيانا للمسات مثل النصال الأيبيري —
مغربية ، ولنحت اضافي استهدف ازالة احدى حوافها ، فأصبحت بعد
ذلك في شكل سكاكين حقيقية (شكل 14 ا) .

— حُزرت أو سنتت بعض الشفرات والنصال ، وكذلك بعض الشظايا ،
فأعطاهما انتظام تسننها أحيانا هيئة مناشير حقيقية صغيرة (شكل 14 ب) .

— وأخيرا ، استخدم الصانع القفصيون تقنية الأراميل الدقيقة في
كسر النصال (أنظر أعلاه ص 85) من أجل صناعة الأدوات الحجرية
الدقيقة ، وهي قطع صغيرة منحوتة ، ذات أشكال هندسية ، يتطلب
صنعها عموما كسرا مضاعفا ، يليه نحت ثانوي يتناول خط الكسر ،
فينتج عنه ما يلي :

— قطع دوائر

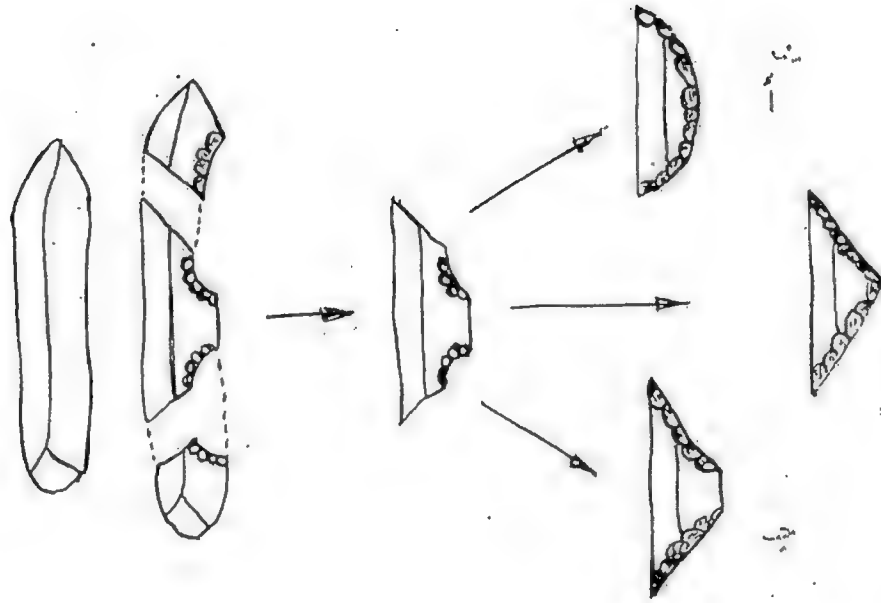
— أشباه منحرفة

— مثلثات (شكل 15 ب) .

يضاف الى هذه الحجارة المنحوتة بطبيعة الحال ساحقات مخصصة
لطحن مداد التلوين ، ومثاقب وسنديانات .

ادوات من العظم المصقول :

تعتبر أدوات العظم المصقول أكثر عدد وتنوع من مثيلاتها في الحضارة
الأيبيري — مغربية إذ توجد من بينها المخارز والقطاعات ، وكذلك
أدوات ذات نهاية دائرية ، وأبر دقيقة وسكاكين حقيقية ، و « خناجر » .
غير أن هذه الأخيرة قطع نادرة الوجود (صورة 12) .



شكل 15 : صناعة قطع حجرية دقيقة ذات اشكال هندسية ، رسم
نظري ، بتر النصلة من نهايتها بتقنية الازميل الدقيق . يسمح
النحت الاضافي ، حسب الحالات ، بالحصول على :

ا) قطعة دائرية .

ب) مثلث .

ج) شبه منحرف .

اكتشفت أدوات عظمية في بعض المواقع (مشتى العربي كاومناطة) سميت خطأ «مناجل» لقد صنعت هذه الأدوات من صلح حيوان ، حفر فيه ثلم طولي غرست فيه حجرات دقيقة (صورة 13) .

بيض النعام :

لقد استعمل الأيبيرو - مغاربة بيض النعام ، حيث توجد قطع منه في بعض المواقع . واستخدم الققسيون بيض النعام بطريقة أكثر انتظام . فبعد استحصال البيض للاستهلاك تستخدم قشوره الأغراض عديدة . تثقب إحدى نهايتي البيضة فيحصل على قارورة حقيقية (صورة 22) ، وتستخدم قشوره المهشمة في صنع أكواب قطر الواحد منها يتراوح بين 4 و 5 سنتمترات ، وهي ذات حافة منتظمة . ويصنع من القطع الصغيرة حلقات ، وذلك بإحداث ثقب في وسطها وتشذيب أطرافها كي تصبح قابلة للصف في خيط ، وهو ما يعطيها صورة لآليء عقد (صورة 14) .

وأخيرا فقد احتوى عدد من قطع القشور التي لا شكل لها على زخارف هندسية منقوشة .

الانسان الققسي : الوسط الجغرافي ونمط المعيشة :

إن الهياكل العظمية المكتشفة في المواقع الققسية لم تحظ بعد بالمواصفة الدقيقة . غير أننا نعرف الققسيين المنتسبين ، مثل انسان مشتى افالوا ، إلى الانسان العاقل ، لكنهم من سلالة مغايرة لسلالة انسان المشتى . وبناء على البيئة العامة لهياكلهم العظمية فهم يقتربون من المتوسطين الحاليين . ومن هنا أطلق عليهم اسم أوائل المتوسطين .

لقد أظهرت مقارنة النوعين : انسان المشتى وأوائل المتوسطيين بعض الاختلافات (صورة 15) ، فالانسان الققسي أقل خشونة وبدائية في مجموعه من فرييه الأيبيري - مغربي ، ذلك أن التواءات العظمية التي تتعلق بها العضلات (في الرقبة وعلى الفكين) أقل قوة ، ومحيط الجمجمة فيه اهليجي الشكل . بينما الوجه أكثر استقامة واستدارة ، وجبهته أكثر ارتفاع ، والعظم الفاصل بين محجري العين فيه قليل البروز ، والفكان أقل قوة .

عاش الققسيون في البلاد التي تكون الآن السهول السهلية في بلاد المغرب . وتوجد بعض آثارهم في التل ، بينما تنعدم في الساحل تماما . لم يطرأ تغير محسوس على هذا الأقليم الطبيعي الذي وقع عليه اختيارهم منذ ذلك العهد ، ما عدا أنه ربما كان أكثر أخضرار وكان أسلوب السكن الشائع هو سكنى العراء . لكن الققسيين لم يكونوا يجهلون سكنى المخايء الصخرية (مثل مخبا ريلاعي بكلومناطة) . ويحتمل أن مضاريهم في الهواء الطلق كان لها ما يحميها من تقلبات الطقس .

وغالبا ما كانت مخيماتهم بالقرب من الوديان أو السبخات ، وهي معروفة حاليا بما تجمع في مواقعها من فضلات كوث تلالا ، تدعى حلزونات أو «رماديات» (الصورة 16) . إنها أكوام ذات أبعاد مختلفة ، يأخذ محيطها شكلا اهليجيا غالبا ، وهي مكونة من رماد المواد والفحم والصخور وبقايا عظام الحيوانات ، ومن كميات كبيرة من الحلزون ، وأدوات حجرية أو عظمية ، وقطع الزينة . وقد مورس أحيانا دفن جثة أو أكثر في الحلزونية أو تحتها ، كما هو الشاذ في موقع عين الذكارة مثلا .

كان الققسيون يستهلكون لحوم الحيوانات المقتنصة ، وهو ما تشهد به العظام المتبقية في المواد ، لكنهم كانوا أكلة حلزون ، بدليل الكميات

الهائلة من قواقع التي تكون أهم شيء في الحلزونية . وكانوا يمارسون مثل الايبيري - مغاربة جمع غلال النباتات كالجذور أو العنبات البرية الصالحة للأكل .

وهكذا كان الإنسان العصر الحجري المتأخر ، من ققسيين وإيبيري - مغاربة أنماط معاشية متشابهة ، رغم أنهم عاشوا في مجالات جغرافية مختلفة ، وفي عصور غير متطابقة بصورة كاملة . لقد كانوا قناصين ، ويقتاتون أيضا من جمع ثمر الحجر أو الحلزون البري ، ويكملون وجباتهم بأغذية من النباتات البرية .

تسمح الوثائق المتنوعة التي جمعت من الحلزونيات بتكوين فكرة عن بعض العادات الققصية .

كان الققسيون يدفنون موتاهم شأنهم في ذلك شأن الإيبيري - مغاربة ، إذ وجدت الهياكل العظمية المكتشفة في الحلزونيات محتفظة بوحدة التشريحية ، وقد طلي بعضها بالمعرة . كانت الجثة تطوى وتسد على الجنب بصفة عامة . ووجدت في كثير من الأحيان عظام بشرية متفرقة ، تدل على أنه أعيد دفنها (أنظر أعلاه ص 51) .

الشيء الغريب حقا الذي يفرض به الققسيون ، هو إعادة استخدامهم للعظام البشرية لقد كشفت الحفريات في مواقع مختلفة على كثير من قطع العظام البشرية المنحوتة ، بعد موت الشخص ، ففي كلو مناة عثر على فك أسفل قطع عرفاه القائمان بالمنشار ، وفي مشتي العربي نشرت قطع من الجمجمة وصقلت وثقت ، كما صقلت قصة ساق بشرية كي تصبح خنجرا ، واكتشفت في مجز عظمة القفا منشورة ومصقولة ، كما عثر على أسنان تحمل تجزيزات حول الجذور (موقع بورطال فاكر) .

أما العادات الخاصة بالاحياء فإن أدراكها أكثر صعوبة ، ويحتمل جدا أن الققسيين كانوا يدهنون أجسامهم . وربما مارسوا الوشم أيضا . لكن هل أنهم أخذوا عن الإيبيري - مغاربة عادة قلع الأسنان ؟ نجهل ذلك . ومع هذا فاقتراع أسنان الفك الأسفل كان أمرا أكثر شيوعا لديهم ، وشمل القلع في عدد من الحالات كلا من الفك الأسفل والفك الأعلى .

وسواء مارسوا دهن أجسامهم أو وشمها فإنهم كانوا يترينون بقطع تشترك في ميزة ، وهي أنها مزودة كلها بما يسمح بتعليقها ، كالثقب أو الثلمة ، ومن أجل هذا أخذوا قواقع مختلفة جدا وثقبوها ، وكذلك الحجارة وقطع العظم . وصنعوا كذلك عقودا من قشور بيض النعام (أنظر أعلاه ص 65) .

بداية فن ما قبل التاريخ :

تبرز مساهمة الإنسان الققصي في تطور حضارات ما قبل التاريخ ضمن مجال خاص ، هو مجال الفن .

حقا ، انه لمن العسير جدا وضع حد مميز بين الأشياء ذات الوظيفة العملية ، وبين التي لها وظائف جمالية . إن يفاصا آشولية دقيقة التوازن من الماء الأبيض لتشهد باحساس جمالي مثل الذي يوحى به نقش حجري ققصي . غير أن المتفق عليه هو أن أحدهما شيء ذو وظيفة عملية (سلاح أداة) بينما لا تدرك بوضوح وظيفة الآخر .

ويبدو ، مهما كان الأمر ، انه لم يوجد قبل الققسيين من أناس ما قبل التاريخ في المغرب من شعر بالحاجة لرسم أشكال على الحجارة والعظم وبيض النعام ، ذات معاني تعذر علينا فهمها اليوم .

إن زخرفة الأدوات العظمية المصقولة وبيض النعام ، رغم تواضع مواضعها ، قد ترجحت بعد هذا الذوق « الجمالي » . فهناك بعض مخازن العظم المصقول تزينها حرات متوازية وخطوط عمودية أو مائلة . كما تحمل كثير من كسر بيض النعام زخارف هندسية منقوشة ، تبدو الزخارف عموما في شكل خطوط بسيطة مستقيمة أو منحنية أو منكسرة ، ولكنها تارة تكون أكثر تعقيدا ، خاصة إذا كانت في صورة خطوط تظليل وآكليل وزوايا ودوائر ، الخ ..

يجدر هنا أن نذكر النموذج الفريد المتمثل في بيضة النعام المزخرفة التي عثر عليها في موقع وادي منقوب (أولاد جلال) .

استخدم الفنان هنا مغرة حمراء في طلي الوجه الداخلي للقطعة ، ثم رسم وجه زائر حيوان يحتمل أنه من فصيلة البقر (، ثم نزع اللون الذي كان خارج الهيئة بواسطة الحك . لكن لم يبق من هذا العمل المعتبر سوى قلع تظهر عليها القدم الأخيرة والمؤخرة وبطن الحيوان وذيله .

عثر في المواقع القفصية أيضا على حجارة كلسية عموما تم صبغها بالمغرة مسبقا ، ثم نقشت تبعا لتقنية مماثلة لتلك التي استخدمت في نموذج بيضة وادي منقوب . ونجد أحيانا نقوشا بسيطة لم يسبق التمهيد لها بالألوان . إن مواضيع الزخرف متنوعة صعبة الفهم ، فهي أحيانا عبارة عن خطوط بسيطة متوازية تكون تريبا أو زوايا متوازية أو ثلاثي .

يتمتاز الزخرفة درجة كبيرة من التعقيد والتركيب في بعض الحالات ، مما يدعو إلى أعمال الخيال لاكتشاف وجه طير أو رأس أروية أو عنزة .

انكشفت أعمال النحت الحجري لأول مرة في موقع المقطع (قصعة) . وفسر بعضها على أنه تمثيلات جنسية ، أما البعض الآخر فهو ربما يمثل

رؤوس حيوانات (الحصان) ، أو أقنعة تمثل وجها بشريا . وهناك نحت يستحق منزلة مرموقة بين الأعمال الكبرى الناجحة في فن ما قبل التاريخ ، إنه فيما يبدو رأس إنسان ، قص شعره على الجهة وأزدل الباقي إلى الخلف أما الوجه فغير منحوت ، ولكنه يحمل تحزيزات . وزين أعلى الرأس بعصابت من المغرة الحمراء (صورة 17) .

لقد استخدم القفصيون كذلك الجوانب الصخرية وصفائح الحجارة والجلاميد الكبيرة كحوامل لأعمالهم الفنية ، مثل ما هو الحال في موقع المقطع (قصعة) الذي يتوفر على صخور منقوشة بأسلوب تخطيطي ، فسرت أشغالها كرموز لأعضاء جنسية أنثوية .

إن الأعمال الفنية الأصلية من رسم ونحت ونقش ، على الحجارة أو بيض النعام ، مدينة كلها للإنسانية القفصية . هذه الأعمال التي بلغ بها النيوليتيون فيما بعد ، درجة كبيرة من الاتقان ، سواء في المغرب أو الصحراء .

حضارات العصر الحجري المتأخر الأخرى

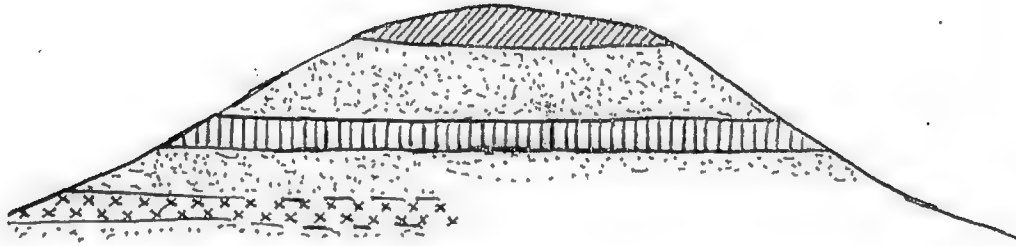
إنها حضارات لا تزال معرفتنا بها محدودة ، لكونها حديثة الاكتشاف . ثم إنها لا تحمل اسما معينا . وتمنعنا نتائج تحليل أدواتها من إلحاقها بالقفصية أو الإيبيري - مغربية . وهي لا تخضع دائما للمقارنة فيما بينها . فلا يسعنا إذن سوى القول بأنها أقدم من الحجري الحديث .

منذ زمن طويل عثر في تونس على مصنوعات حجرية تكون النصال فيها نسبة عالية ، وهي ذات خصائص متميزة عن المصنوعات الإيبيري - مغربية ، وتتركز في جنوبي تونس (في إقليم قابس والشطوط) .

وفي الجزائر يمكن تمييز مجموعتين كبيرتين منها . تتكون الأولى من أدوات حجرية دقيقة جدا ، أي أنها تنطوي على قسم من النصال الدقيقة ذات الحافة المشدبة (طولها دون 25 مم دائما) . وتوجد بعض نماذج هذه المجموعة في كلومناطة (تيارت) وفي موقع كدية كيفان لحدّة (الأوراس) ، وهي هنا تتوضع تحت الطبقة القفصية العليا . وقد تم تأريخها على التوالي بـ 2600 و 6500 ق . م . (أنظر مقطع الصفحة في كلومناطة) .

أما المجموعة الثانية فهي متفرقة أكثر ، وتشمل أدوات جمعت عند السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي (الحويّة قرب الأغواط) . وكذلك في الصحراء الشمالية (حاسي مويلح قرب ورقلة) . تعد مصنوعات الحويّة أقدم من القفصية ، وتختلف عنها بلاريب . أما بالنسبة لحاسي مويلح فإن الموقع قد تواصل عمرانه من طرف أناس الحجري المتأخر (طبقتان) ، ثم عمره النوليتيون أيضا ، لكن كل عمران كان يعقبه إخلاء مؤقت للموقع (شكل 16) .

من السابق لأوانه في الوقت الحاضر تحديد أهمية ودور هاته الحضارات ، لكنها ساهمت ، بلاريب ، في إثراء وتنويع حضارات العصر الحجري المتأخر التي ظلت معرفتنا بها الى وقت قريب مقتصرة على الحضارتين : الايبيري - مغربية ، والقفصية .



نيوليتي 3330 ق.م.

حجري متأخر I 6650 ق.م.

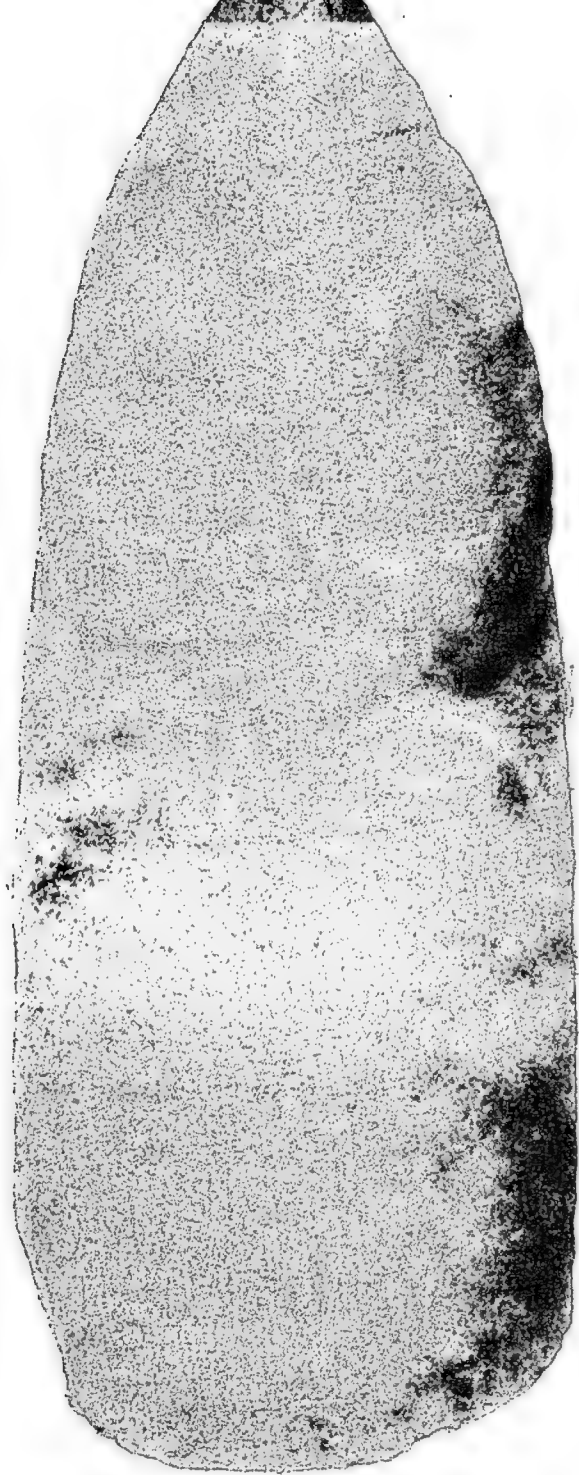
حجري متأخر II 5700 ق.م.

رمل خال من الوثائق

شكل 16 : موقع حاسي مويلح (ورقلة) : مقطع تحيطي يبين مستويات العمران الثلاثة . طبقتان متراكمتان من الحجر المتأخر . وطبقة نيوليتية .



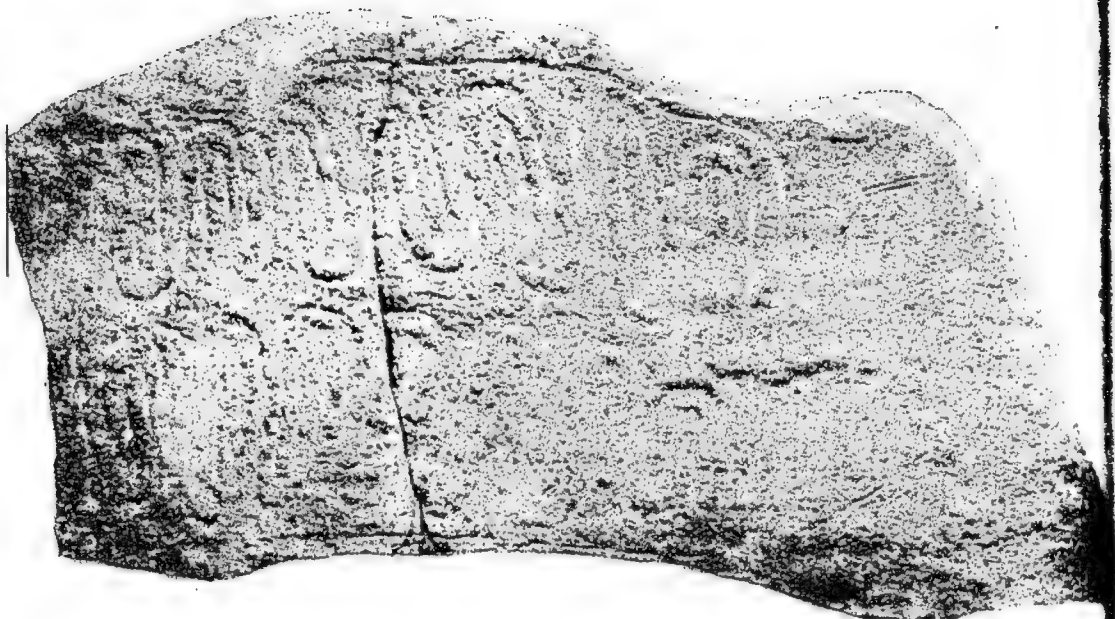
صورة 22 : حاسي مويبح (ورقلة) : مجموعة فارورات من بيض النعام .



صورة 23 : نحت نيوليتي: كبش تاجنتورت (الهقار).



• صورة 24 : رسم صخري نيوليتي : قطع بقر ورعاته ، جبارن (طاسيلي ن - اجر) .



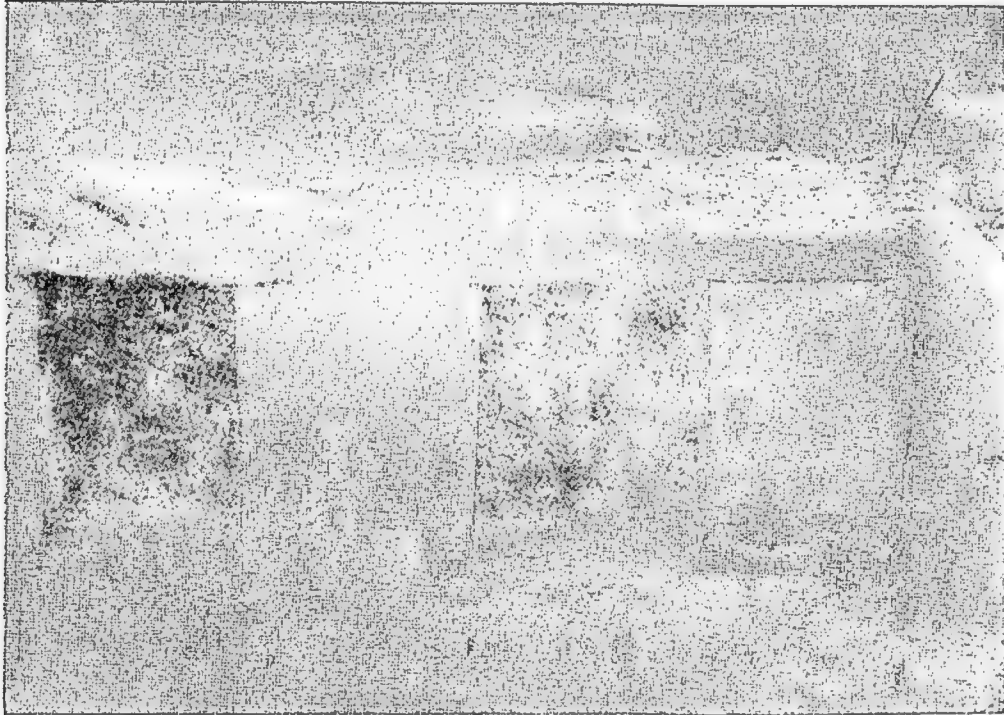
صورة 25 : نقش على الحجر غير مفهوم من تاراواهرت (البقار) .



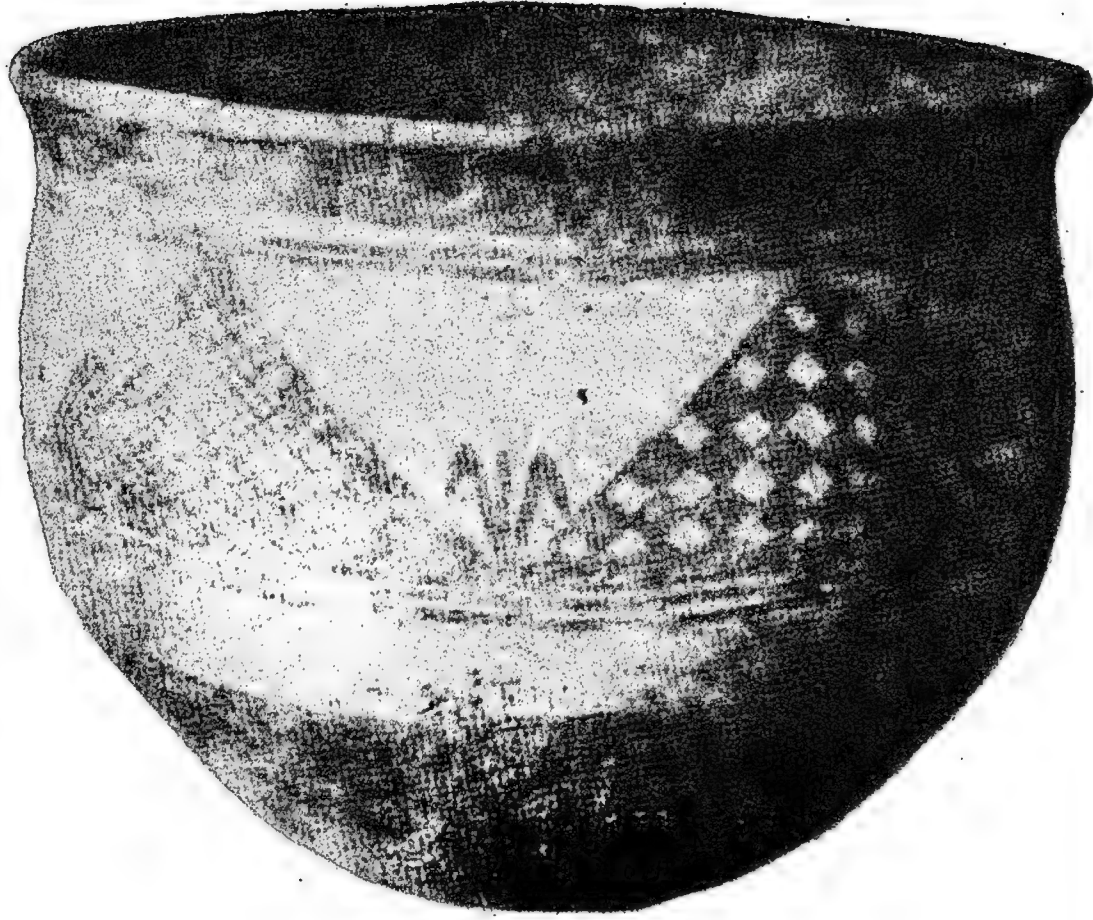
صورة 26 : بناء جنازي مستدير من الحجارة وحدها (الهقار) .

صورة 27 : حانوت (الرأس الطيب ، تونس) . نحتت الصخرة المدخل كي تسمح بوضع حجرة القفل .

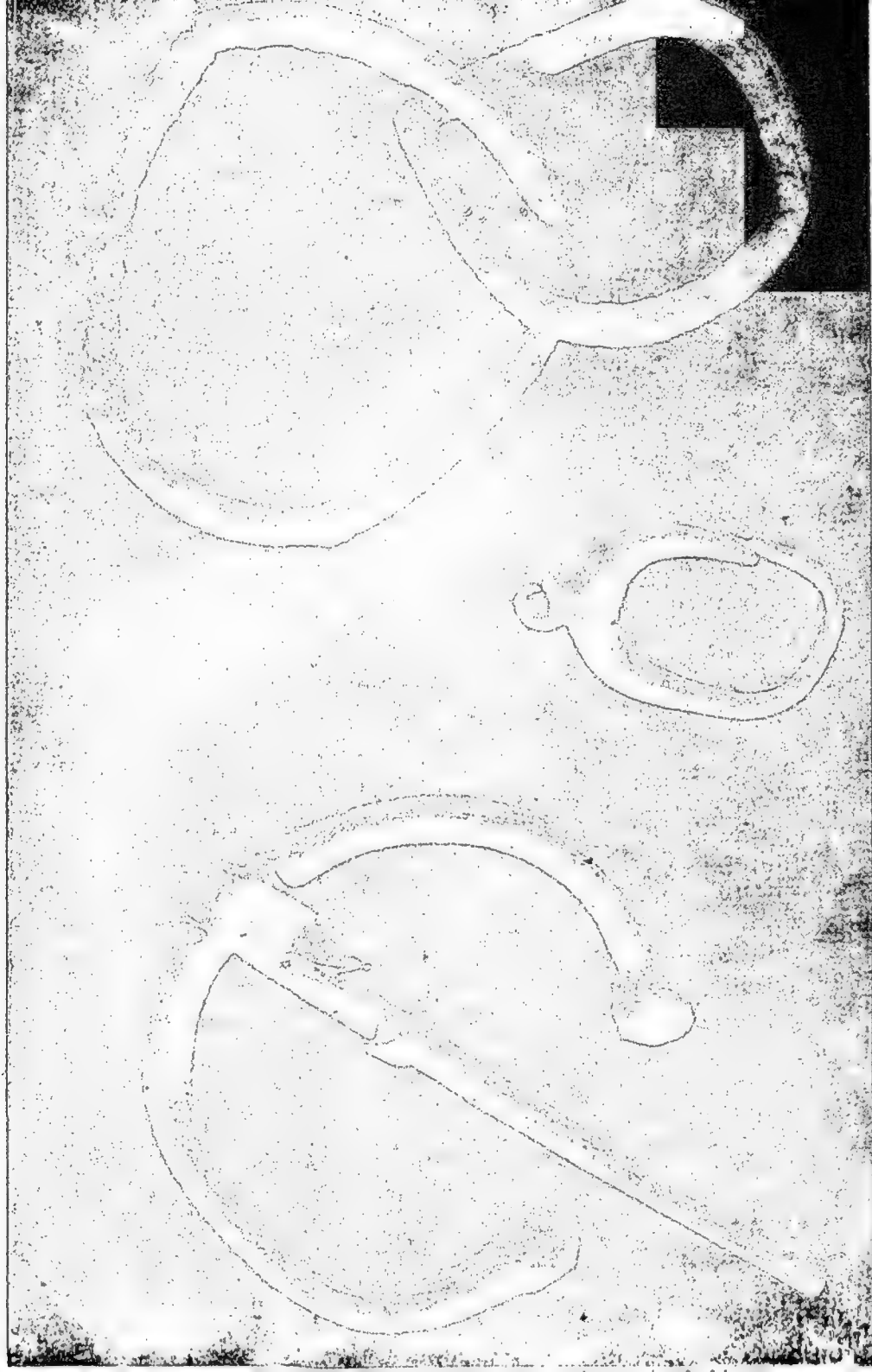




صورة 28 : مصطبة : مقبرة بونوارة (قسنطينة) .
صورة 29 : بناء جنازري معقد من فجر التاريخ . مكثر (تونس) .



صورة 30 : فخار مدهون من فجر التاريخ بتديس (قسنطينة) .



العصر الحجري الحديث (نيوليثيك)

ظهرت في الجزائر الشمالية والجنوبية ، خلال أزمنة مختلفة ، حضارة جديدة ، هي حضارة العصر الحجري الحديث (نيوليتيك) التي أحدثت تغييرا واضحا في أساليب معيشة السكان كما تعد ابتكاراتها في المجال التقني و في أساليب استحصال الغذاء ثورات حقيقية ، وضعت قواعد للمجتمعات الريفية المغربية ، دامت عصورا عديدة . ان هذه المرحلة الطويلة التي بدأت في الصحراء في فجر الألف السابعة وامتدت حتى الألف الثانية ، قد شهدت تبدلات مناخية كبيرة المدى ، وقعت في أصقاع الصحراء الواسعة . ورغم أن عوامل هذه التبدلات غير معروفة الا أنه من الواضح أن العصر الحجري الحديث قد عاصر في الصحراء مرحلة رطبة أخيرة ، قبل أن يعم الجفاف شبه الكامل البلاد الواقعة جنوبي الأطلس . ويجب اذن أن نأخذ بعين الاعتبار هذا التبدل المناخي ، فيما اذا أردنا فهم الازدهار الحضاري الذي تم في مجالات جغرافية تملأ اليوم من البشر .

كانت الجزائر الشمالية والصحراء عندئذ تكونان مقاطعتين متباينتين من حيث السكان والطابع الحضاري . وهو ما يحتم أن ينظر في التغير الحادث في مجال الأدوات ووسائل الاستعمال اليومي من زاوية تقسيم جغرافي وتكنولوجي . اذ أن ثورات الحجري الحديث لم تشمل بلادنا في فترة واحدة ولا بكيفيات موحدة (شكل 17) .

يبد أنه يمكن وصف الخطوط الكبرى لتجديدات العصر الحجري الحديث .

لقد سجلت تقنيات صناعة الأدوات الحجرية تطورا في مجال الصقل . حقيقة أن صناع ما قبل التاريخ قد صقلوا العظم وربما الحجارة أيضا ، قبل النيوليتي ، لكن تقنية الصقل لم تحظ لديهم بالأهمية التي ستكون لها في النيوليتي . لقد برزت هذه التقنية الجديدة في صناعة أدوات

تسمى بالفؤوس والبلمات التي كان الصقل يتناول جميع جوانبها ،
أو بعضا منها ، وهي أدوات تنتهي بحد قاطع . غير أننا لا ندرى فيما
إذا كانت وظيفة تلك الأدوات تماثل وظيفة القطاعات والبلمات الحالية
(صورة 28) .

وظهر أسلوب جديد في مجال التهديب الملحق بالحجارة المنحوتة .
انه تنقيح شامل تناول جزءا هاما من الشظية . ومن أجل ممارسة هذا
التنقيح أهملت تقنية الطرق واستبدلت بطريقة الضغط التي تسمح بنزع
قطع أكثر دقة وطول . أنها تقنية مرتبطة بظهور رؤوس السهام . وهي
عبارة عن شظايا صغيرة ذات أشكال ثلاثية تقريبا ، ثم نحتها بواسطة
تنقيحات شملت الوجهين (صورة 19) .

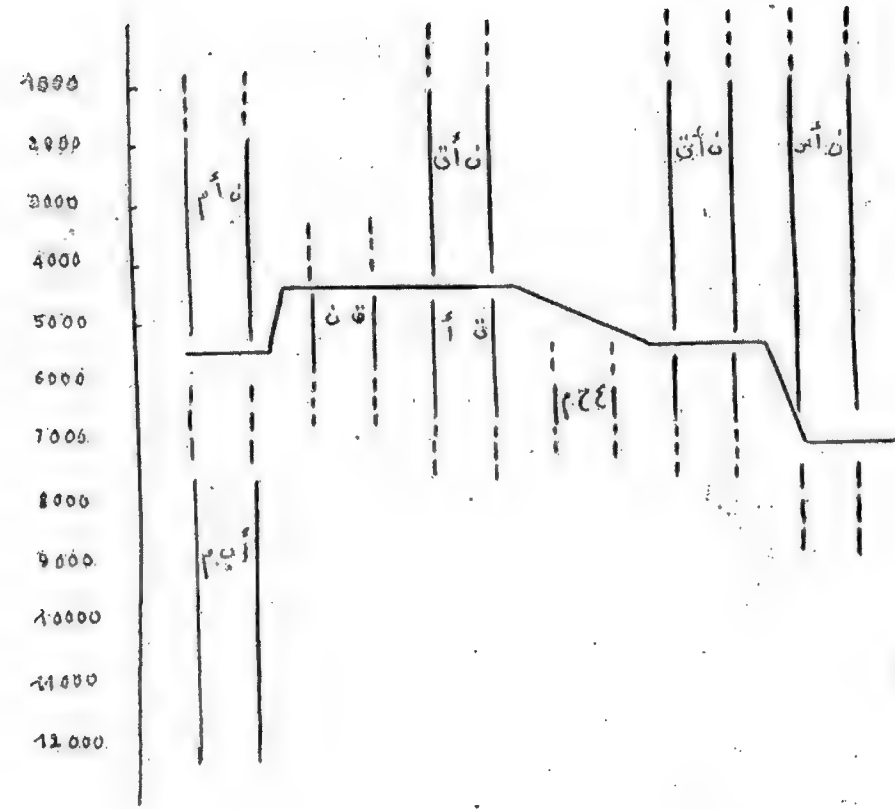
ولكن هناك وثائق مادية تشهد بابتكار أكبر أهمية في مجال تاريخ
التقنيات وأنماط الحياة انه الفخار . لقد تواصل البشر لأول مرة خلال
الحجري الحديث إلى صنع أوانيء توضع على النار دون أن تتحطم .
واستخدموا لهذا الغرض الطين ، وهو مادة تتصف بالليونة والمقاومة .

هناك ثلاث طرق شاعت في صناعة الأواني الفخارية أثناء العصر
الحجري الحديث هي :

— صنعت بعض الأواني الفخارية اعتمادا على تقنية الحماميات ، حيث
كان الصانع يسكل اسطوانة رقيقة من الطين ، ثم يملأها ويعطي لها
شكلا حلزونيا كي تكون جسم اناء .

— القولية ، وتتمثل في تغطية قالب (حبة قرع ، بيضة نعام)
بالطين ، فيعطي القالب شكله للاناء .

— طريقة الطرق ، وتتطلب استعمال خصاة كمطرقة ، تطرق بها كرة
الطين حتى تعطي الشكل المرغوب ، ومفهوم أن داخل الاناء هو الذي
يطرق بهذه الكيفية .



الصحراء

جنوب شمال السهول العليا التل

شكل 17 : بدايات النيوليتي في شمال افريقيا . وقع التحول الى النيوليتي
في فترات مختلفة . وبأشكال متباينة حسب المناطق المأخوذة
بعين الاعتبار .

- 1 . ب . م : ابيرو - مغربي .
- ن . 1 . م : نيوليتي ذو أصول متوسطة .
- ق . 1 . ق : قفصي اعلى .
- ق . ن : قفصي نموذجي .
- ن . 1 . ق : نيوليتي ذو أصول قفصية .
- ع . ح . م : عصر حجري متأخر .
- ن . 1 . س : نيوليتي ذو أصول سودانية .

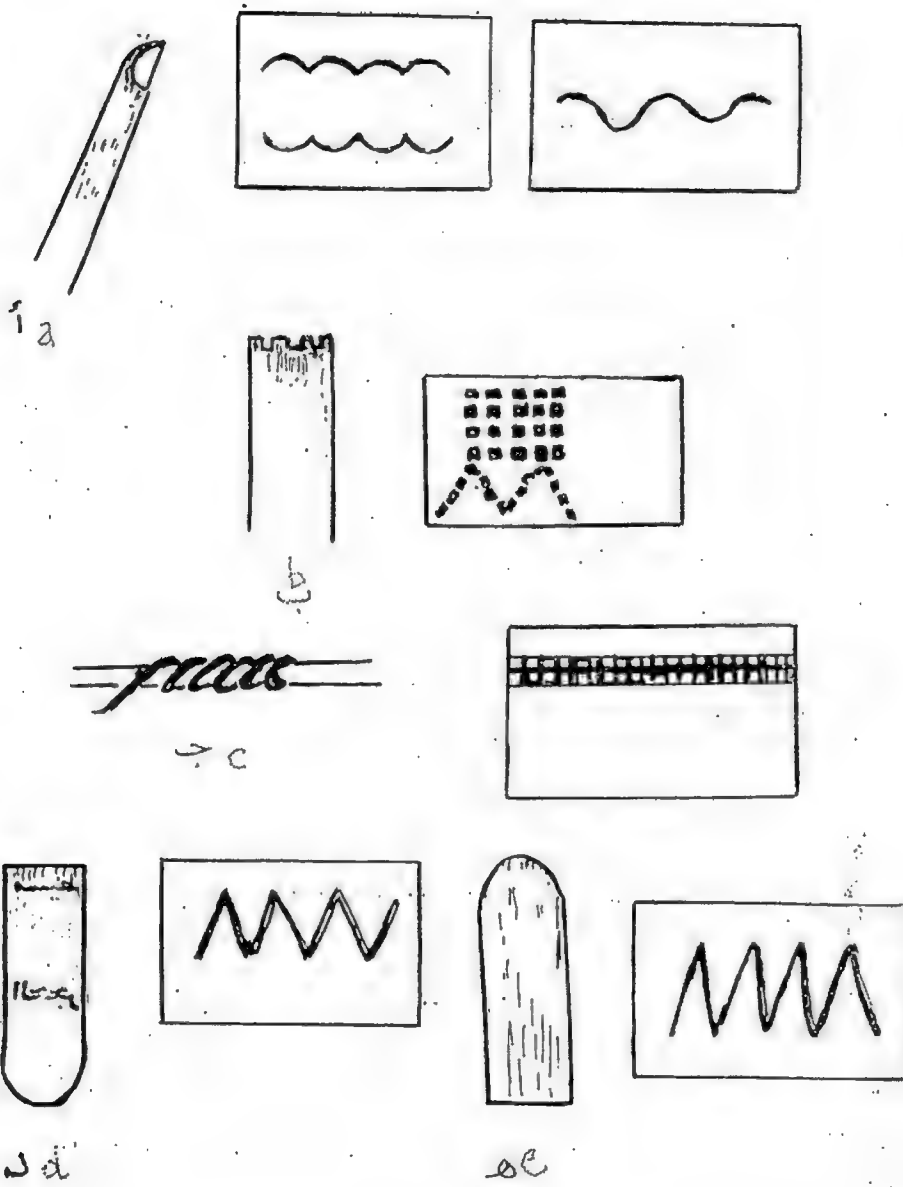
يصقل الصانع ، في حالة القولبة وتقنية الحمايات ، سطح الاناء غير المنتظم باستخدام مشذب أو خرقة مبللة ، وربما كان يقتصر على فعل ذلك بيده . والمشذب (من عظم أو خشب) هو عبارة عن أداة مسطحة قاطعة تسمح بسحج سطح الاناء الموضوع للصقل .

تأتي بعد ذلك عملية زخرفة الاناء ، والطين لا يزال مرنا قبل أن يشوى ، لقد تم التعرف على عدد كبير جدا من الأدوات التي كانت تستعمل في الزخرفة ، نذكر هنا أهمها : المشط وهي أدوات ذات أسنان يختلف عددها وتباعدها ، وقد يكون المشط مقوسا أو مستقيما . المسواط ويمثل نهاية مستوية حادة . كما استعملت المثاقب والاسفيلات أيضا . بالإضافة الى مشط تدعى بالملولبة ، وتتمثل في حبل صغير يلف حول قضيب مختلف المرونة . كما استفاد صناع الحجري الحديث من بعض الأدوات الجاهزة التي قدمتها الطبيعة ، مثل القواقع وسنابل الدخن والقضبان المجوفة ، الخ ..

للحصول على زخرف والآلية لا تزال طرية ، يكفي الضغط بالأداة على سطح الاناء ، وتكرير تلك الحركة بحسب الضرورة . كما يمكن الحصول على زخرف متنوع الأشكال باستخدام نفس الأداة ولكن بكيفية مختلفة (شكل 18) .

بعض الأمثلة من الزخرف :

— يحصل على الزخرف المسنن بتحريك المسواط حول نفسه . وإذا كانت نهاية المسواط دائرية ، يحصل على زخرف متموج .
— يشكل شق القصبة المستطيل زخرفا على شكل اكليل ، وفيما إذا حرك الشق في كل مرة حول نفسه بمقدار 180 درجة يحصل على زخرف موجي الشكل .



شكل 18 : أمثلة من زخرفة الفخار والأدوات التي استعملت .

- (أ) شق قضيب مجوف .
- (ب) مشط ذو أربعة أسنان .
- (ج) مشط ملولب .
- (د ، هـ) مسواط .

تكون الأشكال والزخارف ، تبعا للاقاليم ، احدى قواعد التمييز والتصنيف في حضارات الحجري الحديث .

لا يوجد ما يؤكد العلاقة بين صناعة الفخار المزخرف واستعمالاته ، وبين أعمال الزراعة . كانت الزراعة معروفة آنذاك في أقطار أخرى من العالم كالشرق الأدنى مثلا . وفي الجزائر عثر على دلائل ضعيفة حول هذا الموضوع . غير أن الرسوم الصخرية تعد شهادة لا لبس فيها عن الرعي الذي كان يعتبر نشاطا متميزا لبعض سكان الصحراء .

لكن هذه الأساليب الجديدة في مجال المعيشة لم تقض على الأساليب القديمة القائمة على الصيد البري والبحري وعلى جمع الأثمار رغم منافستها لها .

وهكذا فإن رجال الحجري الحديث ، بمواصلتهم للتقاليد الفنية والتقنية السابقة للنيوليتي أدخلوا بلادنا عصر حضارات الرعي والزراعة ، ولقد ظلت تربية النبات والحيوان ، الى جانب استعمال الخزف ، صفات منسيطرة على الثقافة المادية لمجتمعات الريف الجزائري .

الحجري الحديث ذو الأصول السودانية :

تتجلى أقدم بقايا العصر الحجري الحديث في المرتفعات الصحراوية وفي الهقار . حيث تعود محتويات موقع أمكني (شمال غرب تلمسان) الى 7600 ق . م . وهي تمثل نوعا من النيوليتي المعروف في جهات أخرى وفي الصحراء الوسطى ، ويدعى بالنيوليتي ذي الأصول السودانية = (ن . أ . س) .

ان هذا النوع فقير نسبيا من حيث الأدوات الحجرية . ويظهر أن للمواد الخام الصعبة الانصياح دور في هذا العوز . وتحتوي أدواته ذات

الصنع الرديء على شيء قليل من الأدوات المتخصصة (محكات ، مخارز ، نصال) ، وعلى رؤوس سهام رديئة جدا . غير أن أدوات الطحن فيه كثيرة . فزيادة على أنواع المطاحن المعروفة منذ الحجري المتأخر ، هناك أنواع أخرى من الرحي الحجرية المخصصة لسحق الحبوب (صورة 20) . كما ظهرت أيضا أدوات حجرية مصقولة وحجارة مجززة ، وهي قطع مصقولة غالبا ، تحمل حزة أو عددا من الحزات العريضة . وليس مستبعدا أن هذا النوع من الأدوات كان يستخدم في شحذ وصقل أدوات عظمية . وربما كذلك في ضبط توازن بيض النعام . مع ملاحظة أن هذا الأخير كان نادرا في (ن . أ . س) فعلا ان استعمال بيض النعام الذي كان شائعا في العهد القفصي قد فقد هنا أهميته . ففي موقع أمكني مثلا ، لا توجد قطعة واحدة من بيض النعام المزخرف .

توجد أدوات من العظم المصقول ، لكنها قليلة من حيث العدد والتنوع . وعثر في أمكني أيضا على خنجر جميل جدا ومزخرف ، وعثر في منيت (بجبال مويدر) على صنارة وقطعة خطاف صيد من عظم ، مما يدل على ممارسة الصيد .

ويبرز الفخار ضمن هذه الأدوات القليلة التنوع مؤكدا أصالته السودانية ، خاصة في الأشكال والزخارف .

ان الأولاني كثيرة ، وتتميز بقعرها النصف دائري عن فخاريات النيوليتي بالشمال ذات القعر المخروطي (صورة 21) . ويحتمل أن الصناع قد استخدموا هنا تقنية معقدة ؛ تحصلوا على القعر النصف دائري بقولبة الطين على جسم كروي (حبة فرع) ، ثم شكلوا بقية الاناء بطريقة الخماميات .

أما زخرف الأواني فهو غني ومتنوع ، ويظهر على سطح الأناء كله ، وعلى الجوانب الداخلية من حافة الأناء أيضا ، ويوجي الزخرف الموجي الشكل في أواني أمكني وأماكن أخرى كميت ، بتقارب مع الفخار النيوليتي القادم من السودان (الخرطوم) . وهنا يكمن أصل تسمية هذا النيوليتي بالسوداني الأصول .

أما الوثائق البشرية المكتشفة في مواقع (ن . أ . س) فهي قليلة جدا . ولم يعثر منها في الصحراء الجزائرية سوى في مواقع أمكني ومنيت وتمرامت . (يوجد هذا الأخير على بعد بضعة كيلومترات من المدينة) .

لقد أسفرت دراسة البقايا البشرية ، وخاصة منها الجناح على النتيجة التالية ، وهي أن انسان نيوليتي الصحراء الوسطى لا ينتمي لأي من مجموعتي الانسان العاقل العروقتين خلال العصر الحجري المتأخر ، والتي استمرت في الشمال حتى العصر الحجري الحديث . ذلك أن هؤلاء البشر ينحدرون من فصيلة زنجية سودانية . تتميز على الخصوص ببروز الفم (الفك المتقدم) والخيشوم العريض (الأظفان) ، وباستطالة السواعد والسيقان ، الخ ..

وبفضل المعلومات المستخرجة من مواقع (ن . أ . س) أمكن رسم صورة واضحة عن صحراء الحجري الحديث التي كانت تختلف عن صحراء اليوم ، فعلا لقد كشفت فلوروفونا ذلك العصر بوضوح على مناخ كان أكثر رطوبة من مناخ اليوم . ولنا خير دليل في موقع أمكني ، إذ تتكون فونا هذا الموقع من أنواع تعيش حاليا في نفس الاقليم ، مثل الغزال ، والتي تعيش في مناطق أبعد في مرتفعات الهقار كالأروية ، الى جانب أنواع تعيش في مناطق جنوبية أكثر رطوبة واخضرار مثل الخنازير.

وفضلا عن هذا كشفت الحفريات بموقعي منيت وأمكني عن بقايا أسماك وزواحف ، مما يؤكد أن الصحراء كانت تسقيها مياه وديان هامة .

الحجري الحديث ذو الأصول القفصية :

يتشر هذا النوع في الشمال أكثر من نظيره (ن . أ . س) . بحيث أنه معروف في الجزائر الشرقية مثلما ما هو في شمالي الصحراء . ويتمثل الحجري الحديث ذو الأصول القفصية = (ن . أ . ق) في الجزائر الشرقية خاصة في مواقع داموس الأحمر وبوزاباوين وفي جبل فرطاس . أما في الصحراء الشمالية فإن مواقعها تمتد من الشرق الى الغرب بجوار مواقع (ن . أ . س) متجاوزة حدود الجزائر حتى المحيط الأطلسي .

وقع الانتقال هنا من القفصي الى النيوليتي بصفة تدريجية ، حيث عرفت صناعة الأدوات الحجرية اختفاء تدريجيا في بعض الأدوات القفصية ، وكذلك الأدوات الحجرية المصقولة ، الى جانب الفخار طبعا ، وقد عرف هذا الفخار بأوانيه ذات القعر المخوطي والفتحة الواسعة وبزخارفه المزكزة على الحافة . لكن الفخار لم يعرف الأهمية التي بلغها في مرتفعات الصحراء الوسطى . ويبدو أنه تعرض لمنافسة شيء آخر هو بيض النعام ، حيث كانت البيضة تثقب وتفرغ ثم تستعمل اثناء . وقد عثر في مستوى النيوليتي بموقع مويلح (اقليم ورقلة) على مخزن حقيقي من بيض النعام ، يتكون من احدى عشرة قارورة (صورة 22) .

لكن بيض النعام قد أصبح منذ العهد القفصي مادة ضرورية أولية لصناعة قطع العقود والنوط والأساور .

يسيطر على قطع البيض الميثور عليها زخرف تحزيري ذو طابع هندي غالبا . وتحمل القارورات في موقع داموس الأحمر زخرفا من هذا النوع يحاذي الثقب العلوي فيها .

أما الأدوات العظمية المصقولة في (ن . أ . ق) فهي غنية ومتنوعة مثلما كانت في العهد القفصي ، واحتوت بعض المواقع ، كموقع بوزاباوين وداموس الأحمر على وفرة في المخارز من مختلف الأشكال والأحجام ، وعلى سكاكين وملاعق ، وغير ذلك ..

إذا كانت وسائل الطحن بما فيها من عدد وأنواع ، كالمطاحن والمهارس والرحى ، في كل من (ن . أ . ق) و (ن . أ . س) لا تبرهن على وجود زراعة ، فإن ذلك يشير بالتأكيد إلى أن الغذاء النباتي كان آنذاك أكثر انتشار منه في الحجري المتأخر .

نيوليتي التل :

انه مجهول أكثر من سابقه . ويحتمل أنه قائم على أصول اييري — مغربية . لكن كيفية انتقاله من هذا الأخير لم تدرس بعد .

يظهر هذا النيوليتي ممثلا في كثير من مغارات الساحل الجزائري ، وخاصة في إقليم وهران (مغارة بوليغون وطروغلوديت) .

تتكون أدواته الحجرية من قطع حجرية دقيقة (ميكروليثية) هندسية الشكل ، ضمنها بعض رؤوس السهام النادرة . يضاف إليها أدوات ثقيلة قديمة ، مثل المكاشط والقطع المحززة الخ ..

لكن أصالة هذا النيوليتي تتأكد أكثر في الفخار وما ينطوي عليه من زخرف غني .

ويبدو أن أصحاب هذه الحضارة من أحفاد إنسان مشتي العربي كانوا يمثلون أواخر الاييري — مغاربة ، الذين أرغمهم التوسع القفصي على النزوح ، فيما يبدو ، نحو المرتفعات الساحلية (مرجاجو) .

ازدهار فن ما قبل التاريخ :

رأينا كيف ترجم الإنسان اهتماماته ، منذ العهد القفصي ، في أعمال من الرسم والنحت والنقش ، اعتبرناها عملا فنيا . غير أن تلك المنجزات كان يغلب عليها طابع البساطة فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة .

ولقد خلف الإنسان النيوليتي ، الشمال والجنوب على السواء ، أعمالا فنية قيمة ، جعلت من الجزائر أحد المتاحف الكبرى لفن ما قبل التاريخ . ولا يزال احصاء هذه الآثار أمرا بعيد المثال إذ تشهد كل سنة اكتشافات جديدة في هذا المجال . ان ما نعرفه عن هذا الفن الآن يكفي لأن نعتبر الحجري الحديث مرحلة عبرت فيها عبقرية شعوب شمال غرب افريقيا عن نفسها بنجاح كبير .

المنحوتات :

تعد الاحجار القفصية المنحوتة بالمقطع من النوع الذي يصعب فهمه ، كما أنها ذات تقنية رديئة أحيانا . وهي تعتبر في الوقت الحاضر أولى منتوجات ما قبل التاريخ . ظهرت خلال النيوليتي ، وخاصة في الصحراء منحوتات معتبرة من الناحيتين الفنية والتقنية ، حيث أصبحت تلك المنحوتات مصقولة تماما ، وهي تمثل في مجموعها تقريبا أشكالا حيوانية ، كبقر سيلبي (الهقار) وجبارن (طاسيلي — ناجر) وغوندي عرق آدمير . كان النحت يقتصر أحيانا على نهاية قطع اسطوانية من الحجر المصقول ظلت تعتبر خطأ ، ولمدة طويلة مدقا . ومنها غزال اماكسن (طاسيلي —

ناجر) ، وكبش تاجنتورت (الهقار) (صورة 23) أو تامنتيت (توات) .
وتأخذ بعض هذه المدقات الوهمية شكل نهاية قضيب الذكر (الحشفة) .

الفن الصخري :

أبدع رجال الحجري الحديث في مجال الرسم والنقش على الجدران الصخرية .

لقد تجلت أعمالهم في جهات كثيرة : فمناطق الأطلس الصحراوي من حدود المغرب الأقصى حتى الأوراس غنية بالنقوش الصخرية . وفي الطاسيلي ناجر تكثر الجدران الصخرية المرسومة ، بينما تندر هناك النقوش : وفي مرتفعات الهقار الجبلية توجد كل من النقوش والرسوم .

وتحدد لأنفسنا هنا ذكر بعض المحطات من كل من المناطق الثلاثة السالفة الذكر ، إذ ليس في نيتنا القيام بإحصاء كامل لمواقع الأعمال الفنية في الجزائر :

مواقع الأطلس الصحراوي :

— في الجنوب الوهراني : تيوت ، موغران تحطاني ، الريشة ، سفيسيفة ،
— في جنوب الوسط الجزائري : صفية بورنان ، عين ناقة ، صخر الحمام ، الحصباية .

— في الشرق القسنطيني : عين رقادة ، خنقة الحجر ، كاف لمساورة .
— في الطاسيلي — ناجر : توجد محطات الرسوم الكبرى في أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جنت ، ونذكر منها : صفار ، جبارن ، تامريت ، تان زوميتان .

— في الهقار : يعد مرتفع تيفيديست من أغنى الأماكن بالرسوم والنقوش ، وهناك مواقع أخرى بالقرب من مدينة تمراست .

لم يمارس صناع ما قبل التاريخ الرسم والنقش ، خلال فترة النيوليتي أو بعدها ، بنفس الطريقة ، كما أنهم لم يرسموا نفس الأشياء . حيث تبدو الرسومات متراكبة وفي أساليب مختلفة ، واعتمادا على هذا التركيب وعلى تحليل الصور وأساليبها ، أمكن وضع تصنيف عام للرسوم الصخرية . فهناك مرحلة أولى هي مرحلة المدرسة القديمة ، وتتميز بوجود الحيوانات المتوحشة الكثيرة ، خاصة منها الجاموس القديم . كما تبرز فيها هياكل بشرية ذات رؤوس مستديرة وأخرى في أشكال كبيرة غريبة (معبودات) وحيوانات طويلة القامة . ثم المرحلة الثانية المعروفة بمرحلة «المدرسة الطبيعية» ، وتحتوي خاصة على رسوم الأبقار في صورة قطعان أو فرادى . إنها مرحلة رعاة الأبقار . هذا وقد واصل الناس ، بعد مرحلة ما قبل التاريخ ، ممارسة الرسم والنقش على الجدران الصخرية . وقد تلت مرحلة الأبقار فترة الحصان ، ثم عصر الجمل القريب منا .

ومهما كانت صلاحية هذا التصنيف ، فإنه يمكن جمع وعرض المواضيع المسيطرة في تلك الأعمال الفنية باختصار ، وهي أعمال امتاز فيها كل إقليم بخصائصه ، كما تعايشت أحيانا في لوح واحد أعمال عصور مختلفة . ويجب ألا ينسينا إذن هذا التجميع بحسب المواضيع ، في أن اللوحات تكون في حد ذاتها مجموعات معقدة .

الحيوانات :

إن الجدران المرسومة أو المنقوشة تكون كتب حيوان حقيقية . فقد مثل الإنسان حيوانات وحشية كالفيلة والسنوريات والنعام والزرافات والكر كدن والغزلان والظبي والثيران القديمة والأروية وأفراس البحر ، وكذلك الحيوانات التي ربما كانت موضوع عبادة (عبادة الحيوان) ، مثل ذلك الكبش الذي تعلق رأسه كرة ، وهو كثير الوجود في نقوش

الأطلس ، ويدعو الى احتمال ممارسة العبادة المصرية المثلثة في كيش آمون ، وهناك أخيرا الحيوانات الأهلية ، كالغنم والماعز والثيران والبقر والكلاب . ثم الحصان والجمال فيما بعد . وتظهر غلاميات تدجين الحيوانات ، قبل ظهور الحصان والجمال ، بصفة محسوسة في الحيوان نفسه . حيث تحمل صورة البقرة أو الثور أحيانا زماما (مقود) ، وتبدو أحيانا أخرى في منظر اللوح العام ، مثلا : شخص يرعى قطيعه من الثيران باطمئنان (لوح جبارن الكبير) . (صورة 24) ، وكذلك النساء اللواتي يركبن ثيرانا ويقدنهن بمسك الزمام .

البشر :

ان التمثيل البشري يمنح للفن النيوليثي الجزائري أصالة حقيقية . فهو ان قربه من نقوش الشرق الاسيائي ، يباعد كليا بينه وبين الفن المعروف بـ (فرانكو - كاتنازيك) العائد الى العصر الحجري الاعلى والذي تنعدم فيه الرسوم البشرية تقريبا .

لقد رسمت على الجدران صور الرجال والنساء والأطفال من مختلف الأعمار ، وهي في وضع عادي أحيانا ، وفي مشاهد من الحياة اليومية ، كمناقشة قرب الكوخ ، مثل التي توضحها رسوم صغار ، أو في قيادة القطيع نحو المرعى كما هو الشأن في تين تازاريفت . أما مناظر القنص أو المارك فهي كثيرة ، خاصة في الطاسيلي (صغار ، جبارن) لكن الصور تكون أحيانا غامضة كثيرا فيصعب فهمها أو يستحيل ، مثل المشهد الذي يمثل شخصا بفأس (؟) قرب حيوان ، ورجلا يعضو تناسل لا قياس له ، وجماعة من الناس في وضعية من الحركات لا يمكن فهمها (أذرع ممدودة ، أشخاص جالسون أو قائمون بدون سبب واضح) .

لاتزال المعلومات المستخرجة من هذه الرسوم متواضعة جدا ، وهي غالبا مشوهة غير أنها تقدم لنا نظرة عن ملابس الرجال أو النساء وزينتهم ، وعن الحيوانات الأهلية المحيطة بهم ، والتي ما تزال في حالة توحش وهم يصطادونها قيما يبدو .

تشخيصات مبهمة :

يمكن التأكد من هيات الانسان أو الحيوان ولو تعذر علينا فهم المشاهد التي يظهرون فيها لكن هناك أشكالا في الفن الصخري لا يمكن تفسيرها سوى عن طريق تأويل ضعيف جدا ، اعتبر بعضها ضمن المعبودات كالاله الأكبر (؟) « المريخ » بجبارن ، والاله الأكبر بصفار ، والسيدة البيضاء ، والاله القراء بأوانغيت ، انها تفسيرات غير مؤكدة . وهناك من اعتبر صور النساء الحوامل ، والرجال ذوي الأعضاء التناسلية الكبيرة رمزا لطقوس عبادة الخصوبة . ورأى بعضهم في الأيدي المرسومة رمزا للوقاية من الأمراض الخ . . لكن هذه المحاولات تتعذر تماما في بعض المشاهد الأخرى ، فتظل الرسوم أو المنحوتات مبهمة تماما (صورة 25) .

وواضح أن هذه التفسيرات قائمة على أسس التصورات الكلاسيكية البالية ، كرمز الخصوبة وطقوس المطر وعبادة الحيوان الخ . . ولم يبق هناك سوى احصاء علمي لهذه الأعمال الفنية ، يسمح بتوفير الشروط الملائمة للتصدي لمشكل تفسير الفن الصخري الجزائري المعقد ، مع بعض الحظوظ في التوفيق .

فجر التاريخ

ليس من النافع جدا اعتبار نهاية النيوليتي حدا لما قبل التاريخ .
حقيقة أنه بعد العصر النيوليتي كاد استعمال الحجارة كمادة أولية في
صناعة لأدوات أن يتلاشى نهائيا ، لكن المعادلة القائلة بأن ما قبل
التاريخ = عصر الحجارة قد تجاوزها الزمن في الوقت الحاضر ، اذ نعلم
أن هناك مواد أخرى كثيرة قد تناولها الصانع القدامى ، مثل العظم
وبيض النعام والطين ، والخشب بصفة محتملة جدا .

برزت المرحلة التالية للعصر النيوليتي في مجال الآثار في صورة ثورات
جديدة لا نعرف كيف حدثت على وجه التحديد ، ولكن وثائقها تشهد
عليها . وتتضح هذه التبدلات أولا في الكيفية الجديدة لدفن الموتى ،
وهو هذا التنوع الكبير في الصروح الجنائزية التي تتأكد بوضوح في
مشاهد المقابر الميغاليتية الواسعة .

لقد احتفظت هذه الآثار بوثائق تشهد بتجديدات أخرى ، مثل
استعمال المعدن ، ولكيفيات الجديدة لصنع وزخرفة أواني الفخار .

سبق أن رأينا ضمن الفصول السابقة أن التحري الأثري عبر العالم
سمح بالتوصل الى معرفة الحالة التي كان عليها الأحياء (أدواتهم وحليهم
ونظامهم الغذائي وأعمالهم الفنية وأنماط معيشتهم وأمراضهم الخ ..) .
مثلا يمكن من معرفة حالة الأموات (كيفيات الدفن) . وبالمقابل فإن
علم آثار فجر التاريخ يكاد يقوم أساسا على الوثائق المستخرجة من
المقابر . حقيقة أنه يوجد فن صخري تال للعصر النيوليتي (نقوش
الأطلس الأعلى المغربي ونقوش قبور جرف التربة) وهو من النوع البدي
يجب ألا نبخس قيمته . لكن فيما يتعلق بهذه المرحلة فإنه من خلال
لسان حال الأموات فقط يمكن أن نأمل في استشفاف حال الأحياء .

استخدم سكان فجر التاريخ أنواعا كثيرة من الصروح لدفن أمواتهم . وأكثر هذه الصروح بساطة هي عبارة عن تلال صغيرة من الحجارة أو التراب تدعى (تومولس) ، ودوائر من الحجارة البسيطة أو المتمركزة ، أو فراغات شبه دائرية مبلطة . وتوجد هذه الأشكال في الشمال كما توجد في الجنوب أي في الصحراء (صورة 26) . وتعرف في شرقي الجزائر وتونس أشكال أخرى أكثر تعقيد ، هي الجوانيت والمصاطب . فالجوانيت (صورة 27) هي حجر مكعب الشكل محفورة في الصخر ، وتعلق بواسطة ألواح حجرية مركبة رأسيا كما توجي الحزات المحفورة في حواف الفتحة . أما المصاطب (دولان) (صورة 28) فهي صروح مكونة من ألواح حجرية قائمة ، تشكل حجرة مستطيلة يسقفها لوح حجري أفقي . وقد تكون المصاطب مغروسة في الأرض بعمق مختلف ، كما تكون موضوعة في أعلى صف أو صفوف من الحجارة الثابتة ، الخ .

تحتوي الجزائر على مقابر جميلة من المصاطب ، مثل مقبرة جيل مازلة ببونوارة على الطريق الرابط بين قسنطينة وقالة ، ومقبرة ركنية شمال حمام المسخوطين ، ومقبرة سيقوس على الطريق الرابط بين قسنطينة وعين البيضاء ، ومقبرة بني مسوس قرب مدينة الجزائر .

هناك أشكال أخرى من الصروح الجنائزية ، مثل القبور التي تأخذ شكل الاهراء (المطاير) في غربي الجزائر والمغرب الأقصى ، وكذلك الممرات المبلطة التي تأخذ شكل أروقة مبنية بالألواح من الحجارة (أيت راونة ببلاد القبائل) . وتوجد في شمال الجزائر والصحراء أشكال من المقابر أكثر تعقيدا ، هي البازينات ، مثل بازينات تنديس بالقرب من قسنطينة ، وهي عبارة عن تلال (تومولوس) تكسوها حجارة من الخارج . وكذلك الشوشات ، وهي أبراج صغيرة تبني جدرانها الخارجية بعناية كبيرة . ثم الصروح المسماة في الصحراء بفتحة القفل .

وأخيرا هناك صروح كبيرة الأبعاد ذات غرف عديدة متصلة ببعضها غير رواق أو مطاف ، مثل آثار مكث (صورة 29) واليز بتونس ، وكذلك آثار تين هينان بأبالسة (الهقار) .

ويجدر أن نضيف إلى مقابر المصاطب الشمالية مقابر الهقار الكبرى ذات الصروح المتنوعة ، مثل مقابر تيت (شمال غرب تمراست) وسيلي وأبالسة .

لقد ألقت حفريات الآثار الجنائزية لفجر التاريخ بعض الأضواء على الطقوس المتعلقة بالموت .

كانت طرق الدفن متنوعة : كثيرا ما وضعت الجثة مطوية على الجنب أو الظهر ، وهي طريقة معروفة منذ العصر الحجري المتأخر . غير أن حالة بعض الهياكل العظمية تدل أحيانا ، مثل ما هو الحال في جبل مازلة ، على إعادة الدفن . فبعد تخلص الجثة من لحمها تجمع العظام وتدفن من جديد . وتوجد أيضا حالات نادرة من الترميد .

كان لأناس فجر التاريخ اهتمام بحاجيات الميت ، وهو ما يظهر في التقدّمات التي ربما اشتملت على قربان حيوانية . إضافة إلى وضع أشياء عادية قرب المتوفى كأثاث الفخار وقطع الحلي المعدنية . كما استعملوا المغرة الحمراء بكثرة مثل ما هو الشأن فيما قبل التاريخ .

الفخار :

يختلف الفخار هنا عن مثيله النيوليتي من حيث الشكل والزخرف . ذلك أن الأواني في العصر النيوليتي كان قعرها مخروطي الشكل أو نصف كروي . وكان الزخرف فيها يتم عن طريق الضغط على الطين وهو لا يزال مرنا . أما فخار فجر التاريخ فله قعر مستو ، أما جانب

الاناء فيأخذ شكلا مخروطيا أو اتسيايا أو محدب الاستدارة (شكل 5) .
وبهذا فأشكال الفخار هنا أصيلة أكثر . ومنها الصحون أو الأطباق
والقصاع والأقداح (الأكواب) ، والأواني المختلفة . وقد أضيف إلى
بعض هذه الأواني ملحقات (هي نادرة جدا في النيوليتي) كالمقابض
والمناقر والمصافي ، وحلمات للمسك .

ان زخارف الفخار دهنية ، استعملت فيها طلاءات بيضاء أو حمراء .
ويتكون الزخرف من تعاقب عصابات ملونة على أرضية موحدة اللون ،
كما يكون أحيانا في شكل عصابات من الخطوط أو النقط ، ولقد
احتوى الفخار المستخرج من يازينا تديس على زخرف هندسي (مثلثات)
تلازمه ، وعلى نفس الاناء ، أشكال زخرفية تخطيطية تمثل طيوراً ونباتات
وأشخاصا (صورة 30) .

وهناك أمر هام يكمن في التوزيع الجغرافي للصروح الجنائزية المحتوية
على الفخار ، انها تتواجد كلها ، باستثناء واحدة أو اثنتين ، في مناطق
الشهاطل الكافي لامكانية القيام بزراعة القمح دون حاجة إلى سقاية .
يضاف هذا إلى أشكال الأواني التي تحتوي على أوجه شبه كثيرة
بالأواني الحالية . هذا كله دليل يوحى بالاعتقاد في أن السكان كانوا
زراعا مستقرين .

استعمال المعادن

ظل المؤرخون ، لمدة طويلة ، يعتبرون أن شمال افريقيا لم يعرف
المعدن سوى مؤخرا على يد البحارة الفينيقيين . على أننا تعلم اليوم أن
سكان فجر التاريخ قد عرفوا النحاس والبرونز قبل الحديد ، خاصة
في المناطق الغربية من بلاد البربر . لقد احتفظت أقدم القبور بقطع من
الحلية المعدنية منها أساور مفتوحة ، وخلاخل وخواتم ، وأقراط (صورة

31) . زيادة على ذلك هناك الاكتشافات المبعثرة ، والمعلومات المستخرجة
من دراسة النقوش الصخرية بالأطلس الأعلى المغربي التي تؤكد وجود
أسلحة معدنية ، مثل الخنجر ، المكتشف في شنوة ، والفؤوس والحراش
والخناجر المرسومة في الجدران الصخرية للأطلس المغربي .

ان التنوع الجغرافي للصروح الجنائزية وأدوات المعدن مهدت السبيل
لإقليمية حقيقية عرفها شمال افريقيا خلال الألفين سنة السابقتين لميلاد
المسيح . فمن المؤكد أن أطراف المغرب كانت لها علاقات بالبلاد المجاورة
في الطرف الآخر من المتوسط كالمجموعة الإيطالية - الصقلية من الناحية
الشرقية ، وإيبيريا من الناحية الغربية ، في حين كانت بلاد الجزائر المجاورة
للصحراء مرتبطة أكثر بالصحراء وبافريقيا ، بينما ظل وسط الجزائر أقل
تأثر بهذه التيارات الحضارية .

وهكذا رسمت هذه الجهوية الاطار الجغرافي والثقافي الذي انصهرت
فيه شعوب البربر قبل الميلاد ، فكانت بلاد البربر الشرقية ، بلاد الحوائت
والمصاطب موطناً للماسيليين . وبلاد البربر الوسطى التي تمتد من
الملوية حتى وادي الرمل ، بلاد المازيسيليين . ثم بلاد البربر الغربية ،
وتمتد من المحيط الأطلسي إلى الملوية ، وكانت موطناً للموريطانيين .
وأخيرا بلاد البربر المجاورة للصحراء موطن الجيتوليين والغارامنتيين .

خاتمة :

تحمل بلادنا الممتدة من شواطئ البحر المتوسط الى تخوم الصحراء ، في رفاف وديانها ، وتجويفات جبالها ، في سطح رقوقها ومنحدرات شواطئها ، تحمل بصمات متواضعة ، ولكنها واضحة عن تواجد بشري يعود الى آلاف السنين . لم يكن البشر الذين عاشوا هنا يشبهون بعضهم طيلة هذا الزمن المديد ، لقد تغيرت البنية الفيزيائية ما بين انسان الأطلس والانسان النيوлити وأخفقت مجموعات بشرية في معاشة مجموعات أخرى مؤهلة لدوام أطول ، ولكن خلال هذه التغيرات التي حدثت هنا مثلما حدثت في افريقيا وآسيا وأروبا ، وبفضلها بحث أناس ما قبل التاريخ واستطاعوا أن يسيطروا أكثر فأكثر على العالم المادي ، بواسطة الصيد البري والبحري ، وقطف ثمار النباتات الطبيعية ، ثم بتربية النبات والحيوان . كل ذلك من أجل القوت ، وكانوا على مر الزمن الطويل الملمي بالنجاحات والاختناقات والركود ، يتكرون دائما أدوات فعالية لضمان سيطرتهم على الغذاء .

لكنهم في الوقت ذاته أخذوا يعبرون بلغة تشكلت عندنا أواخر العصر الحجري ، وتأكدت أثناء النيوлити ، عن اهتمامات ، علاقتها بالبقاء ضعيفة كما يبدو لنا .

وان كنا لا نفهم هذه اللغة المعروضة في رسوم جدران المخايي ، والمسجلة في عمل النحت والصقل الدؤوب فلا أقل من الاقرار بجمالها .

فهرس الاشكال

- شكل 1 - استراتيغرافيا في كلومناطة .
- شكل 2 - خط بياني عن الحويطة وكلومناطة .
- شكل 3 - خط بياني عن عين زنزش وملتقى وادي كرمة .
- شكل 4 - صناعة خصاة منحوتة .
- شكل 5 - صناعة بليطة .
- شكل 6 - تقنية لوفلوازية .
- شكل 7 - ادوات موسيرية .
- شكل 8 - ادوات عاترية .
- شكل 9 - نزع النصال (ابيرو - مغربية) .
- شكل 10 - نصال (ابيرو - مغربية) .
- شكل 11 - تقنية الازميل الدقيق .
- شكل 12 - قطع محززة ومسننة .
- شكل 13 - صناعة ازميل .
- شكل 14 - ادوات قفصية .
- شكل 15 - صناعة الادوات الحجرية الدقيقة الهندسية الشكل .
- شكل 16 - مقطع من موقع حاسي مويلح (ورقلة) .
- شكل 17 - بدايات العصر النيوليتي في شمال افريقيا .
- شكل 18 - زخارف الفخار .

فهرس الصور

- صورة 1 - حفريات في كلومناطة (تيارت) .
- صورة 2 - شريحة دقيقة من الفحم لما قبل التاريخ .
- صورة 3 - مغارة وادي قطارة ، استخراج هيكل عظمي .
- صورة 4 - بيقاص اشولية .
- صورة 5 - فك اسفل لانسان الاطلس (تيريفين) .
- صورة 6 - مججمة انسان نياندرتال من جبل أرخود (المغرب الأقصى) .
- صورة 7 - كتلة عظمية (موقع الخنازير) .
- صورة 8 - ادوات العظم المصقول .
- صورة 9 - مججمة انسان مشى العربي .
- صورة 10 - نوط .
- صورة 11 - نزع شظية .
- صورة 12 - خنجر من العظم المصقول .
- صورة 13 - « منجل » من كلومناطة .
- صورة 14 - عقد بيض النعام .
- صورة 15 - نوعا الانسان العاقل في اواخر النيوليتي .
- صورة 16 - حلزونية عين بوشريط .
- صورة 17 - مشخص المقطع .
- صورة 18 - فاس مصقولة .
- صورة 19 - رؤوس سهام .
- صورة 20 - رحي نيوليتية .
- صورة 21 - فخار نيوليتي .
- صورة 22 - مخزن من بيض النعام .
- صورة 23 - كبش تاجنتورت (الهقار) .
- صورة 24 - رسم صخري (جيارن) .
- صورة 25 - نقش من تراواحوت (الهقار) .
- صورة 26 - صرح جنازي (الهقار) .
- صورة 27 - حانوت (الرأس الطيب) .
- صورة 28 - مصطبة (بوتوار) .
- صورة 29 - صرح جنازي (مكتر) .
- صورة 30 - فخار فجر التاريخ (تديس) .
- صورة 31 - مجوهرات (بني مسوس) .

فهرس الموضوعات

5	توطئة
7	مقدمة
17	العصر الحجري الاسفل
19	حضارة الحصى المنحوتة
21	الحضارة الأشولية
45	العصر الحجري الأوسط
53	العصر الحجري المتأخر
56	الحضارة الإيبيرية - مغربية
79	الحضارة القفصية
91	حضارات العصر الحجري المتأخر الأخرى
111	العصر الحجري الحديث (نيوليتيك)
129	فجر التاريخ
137	خاتمة
139	فهرس الأشكال
141	فهرس الصور

الإيداع القانوني: 2007-2511

ردمك: 978-9947-24-282-7

سحب الطباعة الشعبية للجيش

الجزائر- 2007

ISBN 978-9947-24-282-7

